أسرار الالتفات
فى ضوء الذكر الحكيم

دراسة تحليلية

الدكتور ابراهيم على حسن داود

الالتفات من أجل علوم البلاغة ، وهو أمير جنودها ، والواسطة فى قلائدها وعقودها ، وسمى بذلك أخذا له من التفات الانسان يمينا وشمالا ، فهكذا حال هذا النوع من علم المعانى ، فانه فى الكلام ينتقل من صيغة الى صيغة ، ومن خطاب الى غيبة الى غير ذلك من أنواع الالتفات (١) .

وقد جعل ابن الأثير هذا الباب وما يليه « توكيد الضميرين » خلاصة علم البيان التى حولها يدندن ، وعنها يعنعن (٢) وقد يلقب بشجاعة العربية . ويرى ابن الأثير « أنه سمى بذلك ، لأن الشجاعة هى الاقدام ، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ، ويتورد ما لا يتورد سواه ، وكذلك هذا الالتفات فى الكلام ، فان اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات .

وفى الحقيقة أن ما ذكره ابن الأثير لا يركن اليه أحد . وانما

---

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز - العلوى ٢/ ١٣١ ط بيروت .

(٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر . ابن الأثير ٢٥٤ المطبعة البهية ١٢٨٢ .

التعليل المقبول لهذه التسمية أنه (٣) « انما اسمى « شجاعة العربية » لأنه لما كان كلاما فيه قوة يتصرف بها فى المخاطبات من غيبة الى حضور ، ومن حضور الى غيبة ، ومن تثنية الى جمع ، ومن جمع الى تثنية وتقديم وتأخير ، ومع ذلك كله لا يخرجه عن حد الفصاحة والبلاغة لا ينسب الى خلل ولا تقصير فى استيفاء المعانى صار فى نفسه شجاعا بالنسبة الى العربية تشبيها بالرجل الذى تكون فيه شجاعة تحمله فى الحرب على التقديم والتأخير والقرب والبعد ، والاقبال والادبار ، وقل ما يكون آخذا فى موقف الحرب الى جهة اليمين حتى يأخذ جانب الشمال وبالعكس ، أو مواجها بالقتال حتى يلتفت وراءه ، مناوشا من يقابله فحسنت تسمية الكلام المحتوى على ما قدمناه من التقسيم الذى شرحناه بهذه التسمية ، لأن الشجاعة فى مثل هذا الكلام تحمله على الجولان فى جانب المعانى كيف شاء » .

وقد اشتهر فى تحديد الالتفات مذهبان مذهب الجمهور ، ومذهب السكاكى .

أما الجمهور فيقولون فى تحديده : « انه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة ، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها (٤) . والطرق

---

(٣) جوهر الكنز . تلخيص كنز البراعة فى أدوات ذوى البراعة . ضياء الدين أحمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبى ص ١١٥ ، ١١٦ . وقد طبع ابن الأثير فى المثل السائر . نشر منشأة المعارف . الاسكندرية .

(٤) بغية الايضاح لتلخيص المفتاح عبد المتعال الصعيدى ١٤١/١ الطبعة النموذجية ١٩٥٢ .

الثلاثة : هى : الاتكلم والخطاب والغيبة • ومعنى هذا : أن الالتفات لا يتحقق الا بشرطين :

أن يكون فى الكلام تعبيران ، وأن يكون التعبير الثانى على خلاف ما يقتضيه ظاهر الكلام (السياق) ولو كان موافقا لظاهر المقام • اذ أن المراد من مقتضى الظاهر فى الالتفات انما هو مقتضى ظاهر الكلام لا ظاهر المقام • ولذلك عد من الالتفات قوله تعالى « وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى » فانه خطاب موافق لظاهر المقام الذى هو مقام الخطاب • لكنه مخالف لظاهر الكلام ، لأنه عبر عن المعنى أولا بطريق الغيبة فى قوله « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » (٥) على خلاف مقتضى ظاهر المقام ، اذ مقتضاه الخطاب فى الموضعين ، فالتعبير بالخطاب المناسب للمقام بالأصالة التفات ، لأنه مخالف لظاهر الكلام ، والسر فى العدول عن الخطاب الى الغيبة أولا : تعظيم الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم ، لما فيه من التلطف فى مقام العتاب بالعدول عن مواجهته صلى الله عليه وسلم فى الخطاب ، ولعل فى اختيار هذا الأسلوب « ايحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يجب — سبحانه — أن يواجه به نبيه وحبيبه عطفا عليه ، ورحمة به واكراما له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه » (٦) •

وسر الالتفات من الغيبة الى الخطاب فى قوله « وما يدريك » أن المشافهة أدخل فى العتاب • أى : أى شىء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه ، وجملة « لعله يزكى » مستأنفة لبيان أن له شأنا ينافى الاعراض عنه أى لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب مايتعلمه

---

(٥) سورة عبس الآيات ١ ـ ٤ •

(٦) فى ظلال القرآن • سيد قطب • المجلد السادس ٣٨٢٤ ط بيروت •

منك (٧) والضمير فى « لعله » عائد الى سيدنا عبد الله بن أم مكتوم : أى يتطهر بما يتلقن من العلم أو يتذكر ، أى يتعظ فتنفعه ذكراك أى موعظتك . أما قول الزمخشرى رضى الله عنه « وقيل الضمير فى « لعله » للكافر . يعنى أنك طمعت فى أن يتزكى بالاسلام ، أو يذكر فتقربه الذكرى الى قبول الحق . وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن » ففى الحقيقة أن هذا قول ينزه عنه حمل القرآن عليه (٨) . فالترجى راجع الى ابن أم مكتوم لا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه غير مناسب للسياق وفيه اشارة الى أن مجرد رجاء مثله كاف فى امتناع الاعراض والعبوس (٩) .

وعلى سنن هذا العتاب المفعم بالتلطف المتوج بالتعظيم والتكريم جاء قوله سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه فى شأن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » (١٠) فقد قدم العفو على العتاب على ما كان الأولى أن لا يفعله مما هو متعلق بالمصالح الدنيوية من باب التدبير فى الحروب مع تلطف فى الخطاب كما هو دأب الحبيب مع حبيبه مطمئنا لقلبه، وتوجيه الانكار الى الاذن باعتبار شموله للكل . لا باعتبار تعلقه بكل فرد

---

(٧) ينظر . البحر المحيط لأبى حيان ٤٢٧/٨ ، فتح القدير . محمد بن على الشوكانى ٣٨٢/٥ الفتوحات الالهية . بتوضيح تفسير الجلاليق لدقائق الحقبة . سليمان العجيلى الشهير بالجمل ٤٨٧/٤ ط الحلبى .

(٨) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل . الزمخشرى ٢١٨/٤ ط عيسى الحلبى . الطبعة الأخيرة ١٩٧٢ . وينظر البحر المحيط ٤٢٧/٨ .

(٩) ينظر الفتوحات الالهية ٤٨٧/٤ ، روح المعانى . الألوسى ٤٠/٣٠ ط بيروت .

(١٠) التوبة/٤٣ ينظر تفسير أبى السعود . المسمى : ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ٦٧/٤ ، ٦٨ . ط بيروت . الفتوحات الالهية ٢٨٦/٢ ، روح المعانى ١٠٧/١٠ ، ١٠٨ .

فرد لتحقق عدم استطاعة بعضهم كما ينبىء عنه قوله سبحانه «حتى يتبين لك الذين صدقوا » أى فما أخبروا به على الاعتذار من عدم الاستطاعة من جهة المـــال أو من جهة البدن أو من جهتهما معا حسبما عن لهم هناك (وتعلم الكاذبين) فى ذلك فتعامل كلا من الفريقين بما يستحقه » ويرى جار الله الزمخشرى ــ عفا الله عنه ــ أن قوله تعالى « عفا الله عنك » كناية عن الجناية ، لأن العفو رادف لها • ومعناه : أخطأت وبئس مافعلت ولكن سيدنا سفيان بن عيينه ينكر ذلك قائلا : « انظروا الى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ، ولقد أخطأ من زعم أن الكلام كنـــاية عن الجناية وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت • هب أنه كناية • أليس ايثارها على التصريح بالجناية للتلطيف فى الخطاب والتخفيف فى العتاب ، وهب أن العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من القبح واســـتتباع اللائمة بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء ، أو يسوغ انشاء الاستقباح بكلمة « بئسما » المنبئة عن بلوغ القبح الى رتبـــة يتعجب منهـــا » (١١) •

★ ★ ★

قلت : ان شرط الالتفات • أن يكون فى الكلام تعبيران • وأن يكون التعبير الثانى على خلاف ما يقتضيه ظاهر الكلام (المســـياق) وان كان موافق لظاهر المقام • وأريد أن أنبه هنا الى أنه يشترط أن يكون الضمير فى المنتقل اليه عائدا فى نفس الأمر الى الملتفت عنه • بمعنى أن يعود الضمير الثانى على نفس الشىء الذى عاد اليه الضمير الأول • وهذا الشرط مأخوذ من قول الزمخشرى فى قوله تعالى « وقال الله لا تتخذوا الهين

---

(١١) ينظر الكشاف ١٩٢/٢ ، تفسير أبو السعود ٥٩/٤ مع حذف كلمات دعا اليها المقام •

اثنين انما هو اله واحد فاياى فارهبون » (١٢) « نقل الكلام من الغيبة الى التكلم ، وجاز لأن الغائب هو المتكلم وهو من طريقة الالتفات . ومعنى هذا أن الغائب لو لم يكن هو المتكلم لم يجز النقل من الغيبة الى التكلم .

أما اذا لم يتحقق ذلك فلا التفات ولو تحقق النقل فقولك مثلا : أكرم محمدا وأحسن اليه . ليس من الالتفات اذ الضمير فى « أكرم » للمخاطب ، وفى الثانى : للغائب . ففيه انتقال من ضمير المخاطب الى ضمير الغائب ، ومع ذلك لا يسمى التفاتا ، ومثله قوله تعالى : « فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا ، انا آمنا بربنا » (١٣) فالضمير فى الجملة الأولى للمخاطب وهو « أنت » وفى الجملة الأخيرة للمتكلم وهو « نحن » ففيه انتقال من الخطاب الى التكلم ومع ذلك لا يسمى التفاتا لأن المراد ليس واحدا

وأما قوله تعالى « واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون » (١٤) .

فيقول الزمخشرى « ثم توليتم » على طريقة الالتفات . وفى الحقيقة أنه لا التفات هنا . اذ أن الكلام قبل النقل مع البعض ، وبعده

---

(١٢) النحل/٥١ . الكشاف ٢/٤١٣ شروح سقط الزند (ضرام السقط للخوارزمى) ٥/١٩٠١ طبع الهيئة المصرية ، المطول سعد الدين التفتازانى ١٣٣ ط تركيا ١٣٣٠ .

(١٣) طه/٧٢ ، ٧٣ .

(١٤) البقرة/٨٣ . الكشاف ١/٢٩٣ ، حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاى (عناية القاضى كفاية الراضى) ٢/١٦٤ ط بيروت ، روح المعانى ١/٣٠٩ ، حاشية الجمل ١/٧٢ ، تفسير أبى السعود ١/١٢٣ .

مع الكل ، والكل غير البعض • فاذا جعل ناصب الظرف خطابا له صلى الله عليه وسلم والمؤمنين قيل فهذا التفات الى خطاب بنى اسرائيل جميعا بتغليب أخلافهم على أسلافهم ، لجريان ذكرهم كلهم حينئذ على نهج الغيبة ، فان الخطابات السابقة للأسلاف محكية بالقول المقدر قبل « لا تعبدون » كأنهم استحضروا عند ذكر جناياتهم ونعيت عليهم (١٥) •
وان جعل خطابا لليهود المعاصرين فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف • كما أنه تعميم للتولى بتنزيل الأخلاف منزلة الأسلاف للتشديد فى التوبيخ ، وقيل ان الالتفات انما يجىء على قراءة « لا يعبدون » (١٦) بالغيبة وأما على قراءة الخطاب فلا التفات ومن الناس من جعل هذا الخطاب خاصا بالحاضرين فى زمنه عليه الصلاة والسلام وما تقدم خاصا بمن تقدم • وجعل الالتفات على القراءتين لكنه بالمعنى المغير مصطلح عليه ، اذ أن كون الالتفات بين خطابين لاختلافهما لم يقل به أهل المعانى • وما ذكر من التغليب أولى وأحرى ، خلافا لمن التفت عنه وبهذا يظهر أن الزمخشرى حينما قال « على طريقة الالتفات » يعنى أنه حصل نقل على طريقة الالتفات • ولكنه ليس التفاتا •

★ ★ ★

سعد الدين وتعريف الخطيب للالتفات :

لما عرف الخطيب الالتفات عند الجمهور بأنه « التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها » قال سعد الدين معقبا على ذلك (١٧) : « أى بطريق آخر من الطرق الثلاثة ،

---

(١٥) الجامع لأحكام القرآن • القرطبى ٢/١٣ • نسخة مصورة عن ط درا الكتب ١٩٥٣م •
(١٦) كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد • ص ١٦٣ ت د • شوقى ضيف ط دار المعارف • الطبعة الثانية •
(١٧) المطول ١٣١ •

بشرط ، أن يكون التعبير الثانى على خلاف ما يقتضيه الخ أى (ظاهر الكلام لا المقام) ويترقبه السامع ، ولا بد من هذا القيد » .

ويرى ابن يعقوب ضرورة ذلك الشرط : (١٨) « لأنه لا يكفى فى تحقق الالتفات مجرد تعبير مخالف لتعبير آخر عن المعنى ، لأن ذلك قد يكون على حسب ما يناسب سوق الكلام ، فلا يكون من الالتفات فى شىء ، بل لا بد من مخالفة التعبير الثانى للأول مع اتحاد المعنى من كون الثانى جاريا على خلاف ظاهر سوق الكلام بأن يكون على خلاف مايترقبه السامع ، فيخرج عن معنى الالتفات ما جرى على ظاهر ما ينبغى فى سوق الكلام وذلك كقول القائل « أنا زيد وأنت عمرو » ، لأنه وان كان يصدق على كل منهما أنه عبر فيه عن معنى وهو الذات بطريق الغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر وهو المتكلم فى الأول والخطاب فى الثانى، الا أن التعبير الثانى يقتضيه ظاهر المقام ويرتقيه السامع لأن المتكلم اذا قال أنا ، وأنت . ترقب السامع أن يأتى بعده باسم ظاهر خبرا عنه ، لأن الاخبار عن الضمير انما يكون بالاسم الظاهر ، وان كان من قبيل الغيبة عن ضمير المتكلم أو المخاطب الا نه جار على ظاهر ما يستعمل فى الكلام وكذا يخرج عن معنى الالتفات قول الشاعر :

نحن اللذون صبحوا الصباحا يوم النخيل غارة ملحاحا

لأنه (١٩) وان انتقل من ضمير المتكلم وهو « نحن » الى الغيبة وهو « اللذون » الا أنه يقتضيه الظاهر ، لأن الاخبار بالظاهر وان كان من قبيل الغيبة عن ضمير المتكلم أو الخطاب ، جار على ظاهر ما يستعمل فى الكلام ، فلم يجر على خلاف ما يترقبه السامع ، فلولا هذا الشرط لحكم بأن هذا التفات .

---

(١٨) شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١/٤٦٥ .
(١٩) شروح التلخيص (حاشية الدسوقى) ١/٤٦٥ .

كما يخرج بهذا القيد عن معنى الالتفات أيضـا واياك نستعين ، اهدنا ، أنعمت فى قوله تعالى : « اياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » (٢٠) .

فانه وان عبر عن المعنى وهو الذات العلية بطريق الخطـاب بعد التعبير عنها بآخر وهو الغيبة فى قوله « مالك » الا أن هذا التعبير على مقتضى الظاهر . لأن الالتفات حصل أولا بقوله « اياك نعبد » والثانى وهو قوله « واياك نستعين » أتى على أسلوبه . فجرى ما بعده على ما يترقبه السامع ويرى الدسوقى أنه وان كان يصدق على كل من هذه الثلاثة « واياك نستعين ، اهدنا ، أنعمت » أنه انتقـال من طريق الى آخر . « الا أنها خارجة عن الالتفات بهذا القيد ، وان كانت تدخل فى كلام المصنف نظرا لأنه لم ينبه على ذلك القيد » (٢١) .

ولكن يرى العلامة البنانى . أن القيد الذى اشترطه التفتازانى : انما تركه الخطيب نظرا لفهمه من المقام . لأن كلامه فى اخراج الكلام على مقتضى الظاهر (٢٢) .

ما يزعم أنه من الالتفات (٢٢) :

وأما من زعم أن فى قوله تعالى :

« ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين (٢٣) التفاتا حيث ان « الذين » هو المنادى فى الحقيقة فهو مخاطب ، وقد انتقل منه

---

(٢٠) ام الكتاب ٥ ـ ٧ .

(٢١) شروح التلخيص (حاشية الدسوقى) ٤٦٦/١ .

(٢٢) تجريد العلامة البنانى على مختصر سعد الدين التفتازانى على متن التلخيص ٢٢٢/١ الطبعة الخيرية ١٣٢٩ . الطبعة الأولى .

(٢٢) المطول ١٣١ ، شروح التلخيص (عروس الأفراح) ٤٧٨/١ .

(٢٣) المائدة/٦ .

الى الغيبة اذ قال « آمنوا » ولم يقل « آمنتم » فمردود • اذ لا يتسق مع ما تقضى قواعد النحو من أن عائد الموصول قياسه أن يكون بلفظ الغيبة • لأن الموصول اسم ظاهر فهو من قبيل الغيبة (٢٤) ، وان عرض له الخطاب بسبب النداء ، فاذا روعى فى الكلام خطاب العارض بالنداء فانما يكون بعد تمام المنادى نحو « ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم ...» وأما قبل تمامة فحقه الغيبة ، والصلة متممة للمنادى الذى هو الموصول فهى كالجزء منه ، « فآمنوا » حينئذ جار على مقتضى الظاهر •

ولذلك قال المرزوقى فى شرح قول السموءل بن عاديا :

وانا لقوم ما نرى القتل سبة اذا ما رأته عامر وسلول (٢٥)

كان الوجه أن يقول : « ما يرون القتل سبة » حتى يرجع الضمير عن صفة لقوم اليه ، ولا تعرى عنه ، لكنه لما علم أن المراد بالقوم هم قال « ما نرى » وقد جاء فى الصلة مثل هذا وهو فيه أقطع قال الامام على بن أبى طالب :

أنا الذى سمتنى أمى حيدر أكليكم بالسيف كيل السندرة

والوجه « سمته » حتى يكون فى الصلة ما يعود الى الموصول لكنه لما كان القصد فى الاخبار عن نفسه ، وكان الاخبار عن نفسه قول ، لم يبال برد الضمير على الأول وحمل الكلام على المعنى لأنه أمن الالتباس

---

(٢٤) حاشية الصبان على شرح الأشمونى على الفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعينى ١/١٦٢ ، شرح التصريح على التوضيح • خالد الأزهرى ١/١٤٠ ط الحلبى •

(٢٥) ديوانه ص ٩١ ط بيروت ١٩٦٤ ، شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ـ ١٦٨ ت أحمد أمين ، عبد السلام هارون • ط لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٧ •

وهو مع ذلك قبيح عند النحويين حتى ان المازنى قال : لولا اشتهار مورده وكثرته لرددته » .

رد السيالكوتى على المرزوقى : ويرى عبد الحكيم أن الحكم على قول سيدنا الامام على بن أبى طالب بالقبح وبالرد . قبيح ومردود . لأن قول الامام على قدورد مثله فى قول الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم « لى خمسة أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب » (٢٦) . وكان ذلك فى معرض رده على السيد الشريف حيث نقل عنه فى شرحه للمفتاح قوله : لا يبعد أن يجعل « أنا الذى سمتنى ، وأنت الذى خلفتنى ، ونحن قوم فعلنا « بل أنتم قوم تجهلون » (٢٧) من الالتفات من الغيبة الى التكلم والخطاب وتبعه بعض الناظرين بعيد . لأن التعبير انما بمجموع الموصول والصلة ، لا بالموصول وحده حتى يصح أن يقال انه انتقال من تعبير الى تعبير آخر » .

وفى الحقيقة أن قوله تعالى « بل أنتم قوم تجهلون » من قبيل التغليب . يقول الزمخشرى « فان قلت : تجهلون » صفة لقوم ، والموصوف لفظ الغائب . فهلا طابقت الصفة الموصوف فقرىء بالياء دون التاء ، قلت : اجتمعت الغيبة والمخاطبة فغلبت المخاطبة لأنها أقوى وأرسخ أصلا من الغيبة » (٢٨) والالتفات هنا وهم اذ ليس المراد بقوم

---

(٢٦) حاشية عبد الحكيم ٢٥٠ ، ٢٥١ ، الحديث مروى فى فتح البارى شرح صحيح البخارى . العسقلانى كتاب المناقب جـ ٦/٤٥٤ رقم ٣٥٣٢ ، ٤٨٩٦ ط بيروت .

(٢٧) النمل/٥٥ . وينظر حاشية عبد الحكيم ٢٥٠ .

(٢٨) الكشاف ٣/١٥٣ .

قوم لوط • حتى يكون المعبر عنه فى الأسلوبين واحدا كما هو شرط الالتفات ، بل معنى كلى حمل على قوم لوط عليه السلام » (٢٩) •

وليس من الالتفات أيضا قوله تعالى « فان تولوا فانما عليه ماحمل وعليكم ما حملتم » (٣٠) لعدم تحقق النقل من أحد الطرق الثلاثة الى الآخر • والذى هنا انما هو تغيير الأسلوب فقط • وقد عد صاحب الكشف هذه الآية من الالتفات ويبدو أن الذى دفعه الى ذلك أن الزمخشرى لما قال : « صرف الكلام عن الغيبة الى الخطاب على طريق الالتفات وهو أبلغ فى تبكيتهم » (٣١) ظن أن ذلك من الالتفات فقال « هو التفات حقيقى لأنه جعلهم غيبا حيث أمر الرسول بخطابهم فى قوله « قل أطيعوا الله » ثم مخاطبهم بقوله : « فان تولوا »(٣٢) •

وفى الحقيقة أنه لا التفات هنا لأن المولى فى قوله « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » نزلهم منزلة الغائبين ، ولم يسق الكلام معهم على طريق المغايبة •

★ ★ ★

المذهب الثانى فى الالتفات : قلت انه اشتهر فى الالتفات مذهبان • الأول : مذهب الجمهور ومنهم الخطيب القزوينى ، والثانى مذهب الزمخشرى أصلا ، وهو ما ارتضاه أبو يعقوب يوسف السكاكى وسار

---

(٢٩) روح المعانى ٢١٦/١٩ •
(٣٠) النور/٥٤ • الكشاف ٧٣/٣ •
(٣١) الكشاف ٧٣/٣ •
(٣٢) كشف الكشاف لسراج الدين عمر بن عبد الرحمن البهبهانى الكنانى الفارسى القزوينى المتوفى ٧٤٥ •والكتاب مخطوط ورقة ٢٣٨ • رقم ٨٠٧ تفسير دار الكتب ينظر فى ترجمة المؤلف الاعلام • الزركلى ٤٩/١ ط بيروت • معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ٢٨٩/٧ ط بيروت •

عليه وينسب اليه حتى قال العلماء « مذهب السكاكى » ومن المعلوم أن السكاكى لم يضع تعريفا محددا للالتفات وانما أشار الى أن نقل الكلام عن الحكاية الى الغيبة لا يختص بالمسند اليه ، ولا النقل مطلقا مختص بهذا القدر ، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها الى الآخر • أى سواء كان فى المسند اليه أو غيره ، وسواء كان كل منهما وردا فى الكلام ، أو كان مقتضى الظاهر ويسمى هذا النقل عند علماء المعانى التفاتا (١) •

يقول الزمخشرى مشيرا الى أن الالتفات هو مخالفة مقتضى الظاهر ولو كان فى أول الكلام « فان قلت لم عدل عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب • أى فى قوله تعالى « مالك يوم الدين اياك نعبد » • قلت : هذا يسمى الالتفات فى علم البيان قد يكون من الغيبة الى الخطاب ومن الغيبة الى التكلم • كقوله تعالى : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » (٢) وقوله تعالى « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه »(٣) ، وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات فى ثلاثة أبيات•

تطاول ليلك بالأثمد

وبات الخلى ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة

كليلة ذى العائر الأرمد

---

(١) مفتاح العلوم • السكاكى ٩٤ • مطبعة الحلبى ١٣٥٦هـ • وينظر تقرير الشمس الانبابى على شرح سعد الدين لتلخيص المفتاح ٢٨٧/٢ مطبعة السعادة ١٣٣١ هـ •

(٢) يونس ٢٢ •

(٣) فاطر/٩ •

وذلك من نبـــا جـــاءنى

وخبرته عن بنى الأســـود

وذلك على اقتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه » (٤) .

ويعقب الســـيد الشريف على قول الزمخشرى « هـــذا يســـمى الالتفات » مشـــيرا الى أنه انما اقتصر على هـــذه الأنواع الأربعـــة لشهرتها فيقول (٥) : « أشـــار بقوله « هـــذا ... » الى ما يفهم من الكلام السابق من مطلق العدول الواقع بين الطرق الثلاثة وصرح من أنواعه الستة الحاصلة من ضرب الثلاثة فى اثنين بثلاثة .

أولها : ما يندرج فيه المسئول عنه . أعنى الانتقال من الغيبة الى الخطاب ولم يذكر له مثالا .

وثانيها : ما يشارك الأول فى طرفيه على التبادل .

وثالثها : ما يشاركه فى الطرف الأول : وأشار بقوله « وقد التفت امرؤ القيس » الى نوع رابع هو الانتقال من التكلم الى الخطاب فى ليلك واقتصر على هذه الأربعة ، لأنها أكثر الأنواع وأشهرها . وأراد بعلم البيان هاهنا كما فى خطبه المفصل العلوم الثلاثة (٦) .

وبادىء ذى بدء أقول : ان الجمهور يرى فى أبيات امرىء القيس التفاتين باتفاق فى (بات) لعدوله الى الغيبة بعد الخطاب فى (ليلك) وفى (جاءنى) لعدوله بعدها الى التكلم . فالأول : التفات من الخطاب الى الغيبـــة ، والثـــانى من الغيبـــة الى التكلم . وأما قوله (ليلك)

---

(٤) الكشاف ٦٣ ـ ٦٤ .
(٥) حاشية السيد الشريف على الكشاف ٦٢/١ . ٦٣ .
(٦) شرح المفصل لابن يعيش ١٦/١ ط بيروت .

فالسكاكى يجعله التفاتا من التكلم للخطاب لأن الأصل أن يقول : تطاول ليلى • وأما الجمهور فيتعين عندهم أن يكون تجريدا • حيث انه لم يقع قبله التعبير بطريق التكلم (٢٧) •

★ ★ ★

التحقيق فى بيان الالتفات فى قوله تعالى : «الحمد لله ••• اياك نعبد» وفى أبيات امرىء القيس • على رأى الزمخشرى / السكاكى / والجمهور •

لابد لبيان ذلك أن نعلم أن الالتفات عند السكاكى ينقسم الى ما يجرى على خلاف ظاهر المقام ، وان لم يجر على خلاف السياق • وهو الذى يخالف فيه الجمهور والى ما يجرى على خلاف السياق وان لم يخالف ظاهر المقام وهو الذى يخالف فيه الجمهور • فالسكاكى لا يعول فى الالتفات على النطق بتعبيرين ومخالفة أحدهما الآخر فحسب • بل تارة يتحقق الالتفات عنده بتعبيرين كما ذهب اليه الجمهور وأخرى يتحقق بتعبير واحد متى كان مخالفا لمقتضى الظاهر فمقتضى الظاهر عنده نوعان : مقتضى ظاهر المقام ، ومقتضى ظاهر الكلام فالأول يتحقق فى التعبير الواحد كما فى قوله « تطاول ليلك » ففيه التفات عنده لمخالفته مقتضى ظاهر المقام ، اذ المقام عنده للتكلم لا للخطاب والثانى يتحقق فى التعبيرين كما فى قوله « وبات وباتت له ليلة » حيث التفت من الغيبة فى الكلام السابق الى التكلم فى قوله « نبا جاءنى » وعلى ذلك : فالالتفات بتفسير الجمهور أخص منه بتفسير السكاكى ، لأن النقل عنده أعم من أن يكون قد عبر معنى بطريق من الطرق الثلاثة ، ثم عبر عنه بطريق آخر ، أو يكون مقتضى الظاهر التعبير عنه بطريق منها ، فعدل الى الآخر ، وعند الجمهور مختص بالأول • فكل التفات عندهم التفات عنده من غير عكس •

---

(٧) شروح التلخيص (حاشية الدسوقى) ٤٦٤/١ •

ولذا يقول السبكى عن مذهب السكاكى فى الالتفات (٨) : والمشهور أن الالتفات التعبير عن معنى باحدى الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق أخرى ، وهو أخص عن الأول — أى من تعريف السكاكى — لأن نحو : : أمير المؤمنين يأمرك بكذا التفات عند السكاكى دون غيره. وقول السكاكى خلاف الظاهر أعم من أن تكون مخالفة الظاهر لفظية لا معنوية . كقوله تعالى « والله الذى رسل الرياح فتثير سحابا فسقناه» (٩) فان سقناه على وفق الظاهر معنى لأنه جاء على الأصل وعلى خلاف الظاهر لفظا ، لأن لفظ الجلالة للغيبة ، أو تكون مخالفته للظاهر معنوية لا لفظية . مثل أمير المؤمنين يأمر بكذا ، أو معنوية ولفظية مثل « انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر » (١٠) والسكاكى لم يصرح بما أراده بقوله « خلاف الظاهر ، هل يريد بحسب اللفظ أو المعنى ، لكن دلنا على أن ذلك مراده جعله فى أبيات امرىء القيس ثلاث التفاتات ، لكن مخالفة الظاهر فى المعنى لا فى اللفظ شرط كونها التفاتا أن لا يوافق لفظا سابقا ، فان وافقه فليس التفاتا .

فحاصله : أن الالتفات عند السكاكى : اتيان الكلام على أسلوب مخالف لأسلوب سابق مطلقا ، أو لم يسبقه غيره والمعنى يقتضى خلافه .

أو على ذلك :

فاذا كان السكاكى والجمهور قد اتفقوا على أن هناك التفاتا واحدا من الغيبة الى الخطاب فى قوله تعالى « الحمد لله .... اياك نعبد » فيرى السبكى (١١) أن فى ذلك نظرا . لأن الزمخشرى ومن تابعه على أن الالتفات خلاف الظاهر مطلقا وعلى ذلك يلزمهم أنه اذا كان التقدير

(٨) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ١/٤٦٥ . ٤٦٦ .
(٩) فاطر/٩ .
(١٠) الكوثر/١ . ٢ .
(١١) شروح التلخيص ١/٤٧٨ .

وقولوا الحمد لله • فيكون هنا التفـاتان فى الكلام المـأمور بقوله • أحدهما فى لفظ الجلالة فن الله تعالى حاضر فأصـله « الحمد لك » والثانى فى « اياك » لمجيئه على خلاف الأسلوب السابق •

وان لم يقدر « قولوا » كان فى « الحمد لله » التفـات عن التكلم الى الغيبة ، فان الله سبحانه حمد نفسه ، ولا يكون فى « ايـاك نعبد » التفـات لأن « قولوا » مقدرة معهـا قطعـا • وأحد الأمرين لازم للزمخشرى ، والسكاكى اما أن يكون فى الآية التفاتان أو لا يكون فيها التفات بالكلية • هذا ان فرعنا على رأى السكاكى وهو مقتضى كـلام الزمخشرى لأنه جعل فى أبيات امرىء القيس ثلاثا ، وان فرعنا على رأى الجمهور ، ولم تقدر « قولوا الحمد لله » فلا التفات • لأنا تقدر « قولوا » قبل « اياك نعبد » (١٢) ، وان قدرنا « قولوا » قبل « الحمدلله » كان فيه التفـات واحد فى « اياك » ويبطل قول الزمخشرى أن فى أبيات امرىء القيس التفاتات •

ومن ثم ذهب ابن المنير الى القول بأن فى الأبيات التفاتين فقط ، من الخطاب الى الغيبة ، ثم الى التكلم ، لأن مراد الزمخشرى — والله أعلم — أنه اتى بثلاثة أساليب خطاب لحاضر ، وغائب ، ولنفسه فوهم بقوله ثلاث التفاتات ، أو يجعل الأخير ملتفتا التفاتين عن الثانى وعن الأول فيكون ثلاثا والأمر فيه سهل (١٣) •

أما السيد الشريف فيرى أن قول الزمخشرى « ثلاث التفـاتات فى ثلاثة أبيات ويجرى مجرى النص على أن فى كل بيت منهـا التفاتا •

---

(١٢) أشـار أبو حيان الى ان هذا رأى مرجوح • البحر المحيط ٢٤/١ الكشاف ٦٣/١ •

(١٣) حاشية ابن المنير على الكشاف ٦٣/١ •

فيكون « ليلك » التفاتا من التكلم الى الخطاب ، فتعين أن الالتفات عنده مخالفة الظاهر فى التعبير عن الشىء بالعدول عن احدى الطرق الثلاث الى أخرى منها اما تحقيقا ، واما تقديرا كما اختاره الامام السكاكى .

ثم يقول : « ومنهم من اشترط فى الالتفات سبق التعبير بالطريق المعدول عنه ، وحاول تطبيق كلام المصنف (الخطيب) عليه فيكون فى لأبيات ثلاث التفاتات على الجمهور أيضا . فزعم أن الأول فى (بات) من الخطاب الى الغيبة ، والثانى فى « ذلك » من الغيبة الى الخطاب ، والثالث فى « جاءنى » من الخطاب الى التكلم وعلى ذلك لا يكون فى قوله « ليلك » التفاتا ، والخطيب القزوينى وان كان يرى أن ذلك أقرب الا أن هذا مردود بأن حرف الخطاب جار على أصله من كونه لمن يتلقى عنه الكلام لا أنه خاطب به نفسه ، ولذلك لم يعد السكاكى فى الأبيات الثلاثة أربع التفاتات (١٤) .

أو يقال : ان فى « جاءنى » التفاتين : أحدهما باعتبار الانتقال من الخطاب فى « ليلك » والآخر باعتبار الانتقال من الغيبة فى « بات » ولكن فساد هذا ظاهر لأن الانتقال انما يكون فى شىء حاصل واقع عليه أسلوب الكلام وبعد الانتقال من الخطاب فى « ليلك » الى الغيبة فى « بات » قد اضمحل الخطاب وسار الأسلوب أسلوب الغيبة . فلا يكون الانتقال الى التكلم فى جاءنى الا من الغيبة وحدها (١٥) .

ولكن : أيمكن أن يكون الالتفات الثالث فى قوله « عن أبى الأسود » فانه يعنى أباه . فالتفت عن التكلم الى الغيبة ؟ فى الحقيقة أن هذا لا يمكن لأن أبا الأسود علم ، وأيضا فأبو الأسود لم يقع موقع ياء المتكلم

---

(١٤) ، (١٥) ينظر حاشية السيد على الكشاف ٦٣/١ ، المطول ٢٠٢ ، بغية الايضاح ١٤٤/١ .

فى قوله « أبى » بل موقع الاسم المضاف اليها وهو أب • والأحسن أن يجعل الالتفات الثانى فى «ذلك » ، والثالث فى « خبرته » (١٦) •

★ ★ ★

الفرق بين التجريد والالتفات

لكى يتسنى لنا التفرقة بين التجريد والالتفات أرى أنه لا بد من التعرض لحقيقة كل منهما أولا • أما الالتفات فقد عرفنا أنه عند الجمهور ارادة معنى واحد فى صور متفاوتة استجلابا لنشاط السامع ، واستدرارا لاصغائه اليه (١) ، وأما التجريد : فهو عبارة عن أن ينتزع من أمر ذى صفة أمرا آخر مثله فى تلك الصفة على سبيل المبالغة فى كمال الصفة فيه ، حتى انه ليتجرد منه مثله فيها (٢) ، وهو أقسام : منها : أن لا يقصد تشبيه الشىء بغيره ويكون التجريد بمن نحو قولهم « لى من فلان صديق حميم ، أى بلغ فى الصداقة حدا يصح معه أن يستخلص منه آخر مثله فى الصداقة ، ومنها : أن يقصد تشبيه الشىء بغيره ويكون بالباء كقولهم : لئن سألت محمدا لتسألن به البحر ومنها : أن لا يقصد تشبيه الشىء بغيره ويكون بالباء كقول الشاعر :

وشوهاء تعدو بى الى صارخ الوغى بمستلئم مثل الفنيق المرحل

أى تعدو بى ، ومعى من نفسى لكمال استعدادها للحرب مستلئم •

ومنها ما يكون بغير حرف ، ولا يقصد تشبيه شىء بغيره كقول قتادة بن مسلمة الحنفى • من شعراء الحماسة :

---

(١٦) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ٤٧٢/١ •
(١) حاشية السيد على المطول ٤٣٣ •
(٢) شروح التلخيص (عروس ا/فراح) ٣٥٢/٤ •

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة تحرى الغنائم أو يموت كريم

فانه عنى بالكريم نفسه • فكأنه انتزع من نفسه كريما مبالغة فى كرمه ، ولذا لم يقل « أوأموت » (٣) ومنها مخاطبة الانسان نفسه كقول امرىء القيس :

تطاول ليلك بالأثمد وبات الخلى ولم ترقد

فقد جرد من نفسه شخصا فخاطبه ووجه الحديث اليه •

وعلى ذلك فيرى السبكى « أن بين التجريد والالتفات عموما وخصوصا من وجه • فيوجد التجريد دون الالتفات كقولك : رأيت منه أسدا ، ومثل « تطاول ليلك » على رأى الجمهور • والالتفات دون التجريد • نحو « تكلفنى ليلى » فى قول علقمة بن عبدة الفحل :

طحابك قلب فى الحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيب
تكلفنى ليلى وقد شط وليها
وعادت عواد بيننا وخطوب

ففى البيتين التفات من الخطاب فى (طحابك) الى التكلم فى (تكلفنى) ونحو « فسقناه » فى قوله تعالى : والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه»(٤) والتفات وتجريد نحو «فصل لربك وانحر»(٥) ولا واحد منهما كغالب القرآن (٦) •

---

(٣) معاهد التنصيص • شرح شواهد التلخيص • العباسى ١٤/٣ ت محمد محيى الدين عبد الحميد • ط بيروت •
(٤) فاطر/٩ •
(٥) الكوثر/٢ •
(٦) شروح التلخص (عروس الأفراح) ٤٧٦/١ •

ولكن اذا كان السبكى قد أشار الى أن الالتفات يجتمع مع التجريد فهل هذا الاجتماع على سبيل البدلية أو على سبيل القصد ؟

١ ــ ذهب سعد الدين الى أن الالتفات لا ينافى التجريد بمعنى أنه يجوز اجتماعهما فى مادة واحدة قصدا (٧) .

٢ــ أما السيد الشريف فيرى أنه لا يمكن اجتماعهما الا على سبيل البدلية . ويعلل ذلك بأن المقصود من الالتفات عند الجمهور : ارادة معنى واحد فى صور متفاوتة استجلابا لنشاط السامع له ، واستدرارا لاصغائه ، والمقصود من التجريد المبالغة فى كون الشىء موصوفا ، وبلوغه النهاية فيها بأن ينتزع منه شىء آخر موصوف بتلك الصفة وعلى هذا فمبنى الالتفات على ملاحظة اتحاد المعنى ، ومبنى التجريد على اعتبار التغاير ادعاء . فكيف يتصور اجتماعهما ؟ نعم ربما أمكن حمل الكلام على كل واحد منهما بدلا عن الآخر وأما أنهما مقصودان معا فكلا .

مثلا : اذا عبر المتكلم عن نفسه بطريق الخطاب أو الغيبة . فان لم يكن هناك وصف يقصد المبالغة فى اتصافه به لم يكن ذلك تجريد أصلا وان كان هناك وصف يحتمل المقام المبالغة فيه فان انتزع من نفسه شخصا آخر موصوفا به فهو تجريد وليس من الالتفات فى شىء ، وان لم ينتزع بل قصد مجرد الافتنان فى التعبير عن نفسه كان التفاتا عند الجمهور ، أو على مذهب السكاكى (٨) .

ومعنى هذا : أن من المواد ما يصلح لقصد التجريد فقط كقولهم : لى من فلان صديق حميم . اذ لا معنى للالتفات فيه لاتحاد الطريقتين فيه اذ هما معا غيبة ، ومنها ما يصلح للالتفات فقط كقوله تعالى « انا

---

(٧) المطول ٤٣٣ وينظر شروح التلخيص (حاشية الدسوقى) ٣٥٣/٤ .

(٨) حاشية السيد على المطول ٤٣٣ .

أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وأنحر ، » اذ لا معنى للانتزاع والتجريد فيه بأن يقال انتزع تعالى من ذاته ربا مبالغة فى ربوبيته للنبى صلى الله عليه وسلم، لأنه يلزم الصلاة للرب المنتزع — وهذا يبطل ما ذهب اليه السبكى فى سورة الكوثر — ومنها : ما يصلح لهما على سبيل البدلية كقول شاعر الحماسة السابق « فلئن بقيت .. البيت » فان المتكلم بهذا الكلام يحتمل أنه قصد المبالغة فى وصف نفسه بالكرم حتى انتزع من نفسه كريما آخر ، فيكون تجريدا ، ويحتمل أنه أراد التنطع فى التعبير وتحويل الكلام من أسلوب الى أسلوب آخر جديد •

وأما كون الالتفات والتجريد يجتمعان فى مادة واحدة قصدا فلا يصح (٩) •

ثم يورد السيد اعتراضا حاصله أنه يمكن اجتماع الالتفات والتجريد قصدا كما يفهم من تعقيب السكاكى على أبيات امرىءالقيس ثم يدفع هذا الاعتراض اذ يقول : « فان قيل كلام المفتاح حيث قال فى بيان الالتفات « فأقامها مقام المصاب » (١٠) يدل على أنه تجريد أيضا فيجتمعان •

قلنا معنى كلامه أنه أقام نفسه مقام المصاب ، لا أنه جرد منها مصابا آخر ليكون تجريدا ، فما ذكره فائدة اطلاق لفظ المخاطب على المتكلم ، وبيان النكتة الخاصة بالالتفات فى هذا الموضع ، وان شئت زيادة توضيح • فاعلم أن قوله « تطاول ليلك » ان حمل على الالتفات كان فيه ايهام الخطاب ، وملاحظة أن المراد به نفس المتكلم ، ولم يكن هناك مبالغة فى اتصافه بالمحزونية بطريق انتزاع محزون آخر منه ، وان حمل على التجريد كان فيه دعوى الخطاب واظهار أن المراد به مغاير للمتكلم

---

(٩) شروح التلخيص (مواهب الفتاح ، حاشية الدسوقى) ٣٥٩/٤ •

(١٠) مفتاح العلوم ، حاشية السيد الشريف على المطول ٤٣٣ •

منتزع منه ، وكان فيه مبالغة فى اتصافه بالمحزونية بطريق الانتزاع

٣ ــ وأما ابن يعقوب (١١) فقد وافق التفتازانى فيما ذهب اليه . اذ يقول معقبا على قول شاعر الحماسة « فلئن بقيت ... البيت » : وينبغى أن يتنبه هنا الى أن المتكلم بنحو هذا الكلام مما يتبادر منه أنه أقيم الظاهر فيه مقام الضمير : يحتمل أن يقصد المبالغة فى وصف نفسه بذلك الوصف كما وصف نفسه ــ بالكرم هنا ، ثم بالغ حتى انتزع من نفسه كريما آخر ، وقد دلت قرينة المدح هنا على قصد ذلك . لأن المبالغة فى المدح أنسب له فيكون تجريدا ، ويحتمل أن يريد مطلق التنطع فى التعبير ، وتحويل الكلام من أسلوب الى أسلوب ليتجدد فيمال اليه ولا يمل ، فيكون التفاتا ، والمعنيان لا تنافى بينهما فيمكن أن يقصدهما المتكلم معا ، فيكون فى الكلام تجريد والتفات » .

والحق الذى أذهب اليه : أن الالتفات ان شرط فيه الاتحاد حقيقة ، من كل وجه من غير اعتبار المخالفة أصلا ، لكان منافيا فى القصد للتجريد ، لوجود المخالفة فيه ، لأن المعنى المجرد قد اعتبر غير المجرد منه ، وان شرط فيه وجود مطلق الاتحاد فى نفس الأمر ، صح معه اعتبار المخالفة المصححه للتجريد الدال على المبالغة ، ويعتبر الاتحاد فى نفس الأمر المصحح لقصد التنطع فى التعبير ، وقصد تجديد الأسلوب زيادة فى حسن الكلام (١٢) .

ولذا يقول الدسوقى (١٣) « ان التنافى انما يأتى لو كان المقام مقتضيا لهما بجهة واحدة . وأما اجتماعهما فى مادة كل واحد باعتبار فلا ضرر فيه » .

---

(١١) شروح التلخيص (مواهب الفتاح ٤/٣٥٢ ، ٣٥٣ .
(١٢) ذاته ٤/٣٥٣ .
(١٣) شروح التلخيص (حاشية الدسوقى) ٤/٣٥٣ .

صـــور الالتفات

قلت انه اشتهر فى الالتفات مذهبـــان • مذهب الجمهور ، ومذهب السكاكى وهو أصلا مذهب الزمخشرى • وصور الالتفات على مذهب الجمهور ست حاصلة من ضرب ثلاثة فى اثنين أى من نقل كل واحد من الثلاثة الآخرين • فالثلاثة هى : التكلم ، والخطاب ، والغيبة ، والاثنان ما بقى من الثلاثة باعتبار أخذ واحد منها منقولا الى غيره •

الأولى : الانتقال من التكلم الى الخطاب : كقوله تعالى : « قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنـــا ولا يضرنا ونرد على أعقـــابنا كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصـــحاب يدعونه الى الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى اليه تحشرون » (١) فقد عبر عن المعنى أولا بطريق التكلم فى قوله تعالى « وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، ثم انتقل فعبر عنها ثانيا بطريق الخطاب فى قوله « وأن أقيموا ••• » فهذا التفات ـــ على رأى الجمهور لوجود التعبيرين ومخالفـــة الثانى منهمـــا لظاهر السياق ، ولمـــا يترقبه السامع اذ كان مقتضى الظاهر أن يقال « وأن نقيم » والتفات على رأى السكاكى أيضا لمخالفته مقتضى الظاهر •

---

(١) الأنعام ٧٠ ، ٧١ ينظر حاشية الصاوى على الجلالين ٢/٢٢ ط الحلبى •

والسر فى أنه عدل عن ذلك الى الخطاب : للايذان بأن الكافر ما دام كافرا ، كان كالغائب الأجنبى ، فخوطب بما خوطب به الغيب ، واذا أسلم ودخل فى زمرة المؤمنين صار كالقريب الحاضر فخوطب بما يخاطب به الحاضرون » (٢) .

وترى فى هذه الصياغة ما يلفت النظر . اذ عبر بالرجوع الى الشرك بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم فى القبح مع ما فيه من الاشارة الى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر ، وايثار « نرد » على « نرتد » لتوجيه الانكار الى الارتداد برد الغير تصريحا بمخالفة المضلين ، وقطعا لأطماعهم الفارغة ، وايذانا بأن الارتداد من غير راد ليس فى حيز الاحتمال ليحتاج الى نفيه وانكاره

وتجد هذا التشبيه الرائع الذى يعلى من شأن المؤمنين ، ويعرض بالكافرين « اذ أن المؤمنين ثابتون على الطريق المستقيم ، وأن من يدعونه ليس ممن يعرف الطريق المستقيم ليدعى الى اتيانه ، وانما يدرك سمت الداعى وموارد النعيق فقط » (٣) وقوله تعالى : « ونرد على أعقابنا كالذى .... » مثل ضربه الله لمن كفر بعد ايمانه ، واتبع الشياطين من أهل الشرك بالله . وأصحابه الذين كانوا فى حال اسلامه المقيمون على الدين الحق ، يدعو الى الهدى الذى هم عليه يقولون له « ائتنا » وهو يأبى ذلك ، ويتبع داعى الشيطان ويعبد الآلهة والأوثان » (٤) .

---

(٢) روح المعانى ٧/١٩٠ .

(٣) تفسير أبى السعود ٣/١٥٠ .

(٤) الجمان فى تشبيهات القرآن . ابن ناقيا البغدادى ٧٧ تحقيق د. مصطفى الجوينى . طبعة الجيزة . الاسكندرية ١٩٧٧ ، خصائص التشبيه فى صورة البقرة د. ابراهيم على داود ص ٩٨ ، ٤١٣ مطبعة الامانة ١٩٨٦ ط أولى .

ولقد صرح القرآن الكريم بالمراد من هذا التشبيه فى قوله تعالى: « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » (٥) فالمشرك بالله مع وجود من يدله على التوحيد • مثله مثل من اختطفته الشياطين وسارت به فى المفاوز والمهالك مع سماعه مناداة من يأخذ بيده ، ويخلصه منهم ، وهو مفرط وراض لنفسه بذلك » (٦) كما أن عطف التقوى على الصلاة من عطف العام على الخاص وخص الصلاة بعد الاسلام لأنها أعظم أركانه (٧) • وتقديم المعمول فى قوله تعالى « وهو الذى اليه تحشرون » لافادة الحصر • ولا مانع أن يراد مع ذلك مراعاة الفواصل (٨) :

ومنه قوله تعالى : « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون • وما لى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون » (٩) •

ويرى الجمهور أن فى قوله تعالى « وما لى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون « التفاتا من المتكلم فى قوله « وما لى » الى الخطاب فى قوله « واليه ترجعون » لوجود التعبيرين ، ومخالفة الثانى منهما لظاهر السياق ، ولما يترقبه السامع اذ كان مقتضى الظاهر أن يقال « واليه أرجع » والتفات على رأى السكاكى أيضا لمخالفته مقتضى الظاهر •

وعلة العدول الى الخطاب : (١٠) « أنه لما أمرهم باتباع المرسلين أخذ بيدى الدليل فى اتباعهم وعبادة الله ، فأبرزه فى صورة نصحه لنفسه

---

(٥) الحج/٣١ •
(٦) ، (٧) حاشية الصاوى على الجلالين ٢/٢١ ، ٢٢ •
(٨) روح المعانى ٧/١٩٠
(٩) يس / ٢٠ ـ ٢٢ •
(١٠) البحر المحيط ٧/٣٢٨ ، ٣٢٩ •

وهو يريد نصحهم ليتلطف بهم ، ويراد بهم ، ولأنه أدخل فى امحاض النصح حيث لا يريد لهم الا ما يريد لنفسه ، فوضع قوله « وما لى لا أعبد الذى فطرنى » موضع • وما لكم لا تعبدون الذى فطركم • ولذلك قال • واليه ترجعون ، ولولا أنه قصد ذلك لقال : « واليه أرجع » ثم أتبع الكلام بعد ذلك مخاطبا لنفسه فقال أأتخذ من دونه آلهة قاصرة عن كل شىء لا تنفع ولا تضر • فان أرادكم الله بضر وشفعت لكم لم تنفع شفاعتهم ولم يقدروا على انقاذكم فيه • أولا : بانتفاء الجاه عن كون شفاعتهم لا تنفع ، ثم ثانيا بانتفاء القدرة فعبر بانتفاء الانقاذ عنه اذ هو نتيجته » •

ويقول الألوسى نقلا عن عبد الحكيم « أن المراد من قوله « وما لى لا أعبد الذى فطرنى فوق ما تقدم تقريعهم على ترك عبادة خالقهم الى عبادة غيره كما ينبىء عنه قوله تعالى « واليه ترجعون » ونكتة العدول الى الخطاب : المبالغة فى تهديدهم بتخويفهم بالرجوع الى شديد العقاب مواجهة صريحا • ولو قال : واليه أرجع • كان فيه تهديد بطريق التعريض ، وعد التعبير باليه ترجعون بعد قوله « وما لى •• » من باب الالتفات لكان التعريض بالمخاطبين فى « ما لى لا أعبد » فيكون المعبر عنه فى الأسلوبين واحدا • وذلك بناء على ما ذهب اليه الخطيب القزوينى والتفتازانى من أن التعريض اما مجاز أو كناية • وهو ها هنا مجاز لامتناع ارادة الموضوع له ، فيكون اللفظ مستعملا فى غير ما سمع له فيتحد المعبر عنه (١١) •

---

(١١) ينظر روح المعانى ٢٢/٢٢٦ ، ٣٢٧ ، بغية الايضاح ٤/١٨٨ اطوال ٤١٤ ، البرهان فى علوم القرآن الزركشى ٣/٣١٦ ت محمد أبو الفضل ط بيروت ، معترك الأقران فى اعجاز القرآن السيوطى ١/٣٧٨ تحقيق على محمد البجاوى ط بيروت •

أما السيد السند قدس سره — فيرى أن المعنى التعريضى من مستتبعات التراكيب وعلى ذلك فاللفظ ليس بمستعمل فيه ، بل هو بالنسبة الى المستعمل فيه اما حقيقة أو مجاز أو كناية (١٢) ، وعليه : فضمير المتكلم فى (وما لى) ليس مستعملا فى المخاطبين • فلا يكون المعبر عنه فى الأسلوبين واحدا فلا التفات » •

أما السبكى فيقرر تبعا للخطيب •• وقد سار على نهجهما سعد الدين فى المطول أن التعريض لا ينافى الالتفات فلا تناقض • فيقول (١٣) ان المراد من قوله تعالى « وما لى » : وما لكم لا تعبدون الذى فطركم بدليل : « واليه ترجعون » فان قلت قد تقدم أن « واليه ترجعون » التفات • والمعنى واليه أرجع • فاذا كان تعريضا لا يكون فيه التفات بل يكون عبر فى الأول بياء المتكلم عن المخاطبين فهذا مناقض لما سبق قلت : ليس كذلك ، ولا منافاة بين الكلامين ، فان التعريض ليس من شرطه أن يراد به غير ظاهر اللفظ ، بل يراد ظاهره لا لقصده ، بل يكون المقصود بالكلام غيره • كما يخوف الملك ولده ليحذر غيره من خدمه تأسيا من باب أولى • فقوله « وما لى لا أعبد » المراد به المتكلم •

وهذا كله اذا قطعنا النظر عن الآية السابقة وهى قوله تعالى « قال يا قوم اتبعوا المرسلين » أما اذا روعيت فى هذه الجمل ، فيكون فى التعبير الأول « وما لى » التفات على المذهبيين أما على رأى السكاكى فلأنه مخالف لمقتضى الظاهر • وأما على رأى الجمهور • فلأنه عبر عن

---

(١٢) حاشية السيد على المطول ٤١٤ ، ٤١٥ • ومستتبعات التراكيب : هى المعانى التضمنية والالتزامية التى تفهم فى ضمن الدلولات المطابقية من غير تعلق قصد المتكلم بها • حاشية السيالكوتى ٢٥٢ •

(١٣) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ٤٦٦/١ ، ٦٣/٢ـ٦٥

المعنى بطريق التكلم فى قوله « وما لى » بعد التعبير عنه بطريق الخطاب فى قوله « اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون »•

هذا : وقد أورد سعد الدين شبهتين قد يعترض بهما لاخراج هذه الآية من الالتفات ولكنه يرد على ذلك مقررا أن قوله تعالى « وما لى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون » من الالتفات اذ يقول : « فان قلت « ترجعون » ليس خطابا لنفسه حتى يكون المعبر عنه واحدا ، قلت : نعم ولكن المراد بقوله « وما لى لا أعبد » المخاطبون والمعنى : وما لكم لا تعبدون الذى فطركم ، فالمعبر عنه فى الجميع : هو المخاطبون •

فان قلت : حينئذ يكون قوله « ترجعون » واردا على مقتضى الظاهر ، والالتفات يجب أن يكون من خلاف مقتضى الظاهر • قلت : لا نسلم أن قوله « ترجعون » وارد على مقتضى الظاهر ، لأن الظاهر يقتضى ألا يغير أسلوب الكلام بل يجرى اللاحق على سنن السابق ، وهذا الخطب مثل التكلم فى قوله : « من نبا جاءنى » وقد قطع المصنف بأنه وارد على مقتضى الظاهر • وزعم أن الالتفات عند السكاكى لا ينحصر فى خلاف مقتضى الظاهر ، وهذا مشعر بانحصاره فيه عند غير السكاكى وفيه نظر • لأن مثل « ترجعون ، وجاءنى فى الآية والبيت التفات عند السكاكى وغيره ، فلو كان واردا على مقتضى الظاهر لما انحصر الالتفات فى خلاف مقتضى الظاهر عند غير السكاكى أيضا، فلا يتحقق اختلاف بينه وبين غيره ، ثم الحق أنه ينحصر فى خلاف الظاهر • وأن مثل « ترجعون وجاءنى » من خلاف مقتضى الظاهر(١٤)•

ويرى السمين رضى الله عنه أن الصرف هنا أحسن من ادعاء الالتفات • اذ يقول قوله تعالى : و « وما لى لا أعبد » أصل الكلام • وما لكم لا تعبدون ، ولكنه صرف الكلام عنهم ليكون الكلام أسرع قبولا

---

(١٤) المطول /١٣٢ ، ١٣٣ ، بغية الايضاح ١/١٤١ ، مفتاح العلوم/٩٥ ، حاشية عبد الحكيم ٢٥٣ •

ولذلك جاء قوله « واليه ترجعون » دون « واليه ارجع » وقوله « أأتخذ » مبنى على كلامه الأول وهذه الطريقة أحسن من ادعاء الالتفات»(١٥)

كما ذهب العلامة الصاوى رحمه الله الى أن الأحسن أن يكون فى الآية احتباك والأصل : وما لى لا أعبد الذى فطرنى واليه ارجع ، ومالكم لا تعبدون الذى فطركم واليه ترجعون فحذف فى الأول نظير ما ذكر فى الثانى وبالعكس • ولكن يرى العلامة الآلوسى أن هذا مفوت لما سيق له الكلام (١٦) •

★ ★ ★

وقد ذهب المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى الى أن الحق أن تكون الآية من التعريض لا الالتفات • وأن التمثيل بقوله تعالى : « قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين »(١٧) أظهر من الآية السابقة (١٨) •

و فى الحقيقة أنه لا وجه للالتفات فى هذه الآية • اذ أن قوله(١٩) « ولا تكونن » اما أن يكون على اضمار القول • أى وقيل لى لا تكونن• قال أبو البقاء (٢٠) : ولو كان معطوفا على ما قبله لفظا لقال : وأن لا أكون ، واليه نحا الزمخشرى (٢١) فانه قال : « ولا تكونن » أى وقيل

---

(١٥) حاشية الجمل على الجلالين ٣/٥٠٨ •

(١٦) حاشية الصاوى على الجلالين ٣/٢٦٧ ، روح المعانى٢٢/٢٢٧

(١٧) الأنعام /١٤ •

(١٨) بغية الايضاح ١/١٤٢ •

(١٩) حاشية الجمل ٢/١٢ •

(٢٠) التبيان فى اعراب القرآن • العكبرى ٤٨٤ •

(٢١) الكشاف ٢/٨ •

لى لا تكونن ، ومعناه : أمرت بالاسلام ونهيت عن الشرك : واما أن يكون معطوفا على أمرت حملا على المعنى • والمعنى قل انى قيل لى : كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين فهما جميعا محمولان على القول لكن جاء الاول بغير لفظ القول وفيه معناه فحمل الثانى على المعنى(٢٢) وقيل ان قوله تعالى «ولا تكونن» معطوف على «قل» على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أمر بأن يقول كذا ونهى عن كذا ولكن هذا لا يصح لأن سلامة النظم تأبى عن فصل الخطابات التبليغية بعضها عن بعض بخطاب ليس منها كما جوز البعض • أن يعطفه على (انما أمرت) داخلا فى حيز (قل) والخطاب لكل من المشركين ، ولا يخفى تكلفه وتعسفه ، وعدم صحة عطف على (أكون) ظاهر • اذ لا وجه للالتفات • ولا معنى لان يقال • أمرت أن لا تكونن

★ ★ ★

الثانية : الانتقال من التكلم الى الغيبة : وذلك كقوله تعالى : « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »(٢٣) •

فقد جرى الأسلوب على طريقة التكلم فى قوله « انى رسول الله » ثم انتقل الى طريق الغيبة فقال « فآمنوا بالله ورسوله » وكان مقتضى الظاهر أن يقول « فآمنوا بالله وبى » ففى التعبير الثانى التفات على المذهبين ، أما عند الجمهور فلوجود التعبيرين ، ومخالفة ثانيهما لمقتضى ظاهر الكلام ، وما يترقبه السامع ، وأما عند السكاكى فلمخالفته لمقتضى الظاهر •

---

(٢٢) روح المعانى ٧/ ١١٠ ، ١١١ •
(٢٣) الأعراف /١٥٨ •

والسر فى العدول عن المضمر الى الاسم لظاهر ، لتجرى عليه الصفات التى أجريت عليه ، ولما فى طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أن الذى وجب الايمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان أنا أو غيرى اظهارا للنصفة وتفاديا من العصبية لنفسه » (٢٤) .

وفى ابتداء هذه الآية بلفظ « قل » أمر للمصطفى عليه الصلاة والسلام بأن يصدع بما فيه تبكيت لليهود الذين حرموا أتباعه ، وتنبيه لسائر الناس على افتراء من زعم منهم أن الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم مرسل الى العرب خاصة . اذ أن لفظ « الناس » من الألفاظ الجامعة . فاذا أريد خطاب الجنس كان هذا اللفظ صاحب الدلالة على ذلك أى جماعة الانسان ، وحكى بعضهم أنه يقال : ناس من الجن . وحمل عليه قوله فى سورة الناس « الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس »(٢٥) فهو يجعل من الجنة والناس بيانا .

والقصر الحقيقى فى قوله « لا اله الا هو » بدل من الصلة التى هى « له ملك السموات والأرض » وكذلك « يحيى ويميت » وفى « لا اله الا هو » بيان للجملة قبلها ، لأن من ملك العالم كان هو الاله على الحقيقة (٢٦) . وليس المراد بالبيان الاثبات بالدليل حتى يقال الظاهر العكس ، لأن الدليل على تفرده سبحانه بالألوهية ، ملكه للعالم بأسره ، مع أنه يصح أن يجعل دليلا عليه أيضا فيقال : الدليل على أنه جل شأنه الملك المتصرف فى ذلك انحصار الألوهية فيه ، اذ لو كان اله غيره لكان له ذلك » .

---

(٢٤) الكشاف ٢/١٢٣

(٢٥) الآيتان ٥ ، ٦

(٢٦) الكشاف ٢/١٢٣ .

وفى الجمع بين الاحياء والاماتة طباق يفيد زيادة تقرير ألوهيته، وتصوير القدرة فى أوسع معانيها ، وبيان السلطان فى أشمل مظاهره وأكملها ، والحكم بأنه يقدر على الأمرين • وفى هذا أكبر دلالة على اختصاص الله بذلك وأنه لا يشركه أحد ، وفى ختم الآية بقوله لعلكم تهتدون » ما يفيد أنها علة للفعلين ، أو حال من فاعليهما • أى رجاء لاهتدائكم الى المطلوب ، أو راجين له ، وفى تعليقه بهما ايذان بأن من صدقه ولم يتبعه بالتزام أحكام شريعته فهو بمعزل عن الاهتداء ، مستمر على الغى والضلال » (٢٧) •

ومن الانتقال من التكلم الى الغيبة أيضا • قوله سبحانه وتعالى « انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستيمها ، وينصرك الله نصر عزيزا »(٢٨)

فقد جرى الأسلوب على طريقة التكلم فى قوله « انا فتحنا » ثم انتقل الى طريق الغيبة فى قوله « ليغفر لك •• » وكان مقتضى الظاهر أن يقول لنغفر لك » والسر فى ذلك أن الالتفات الى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات كالغفران ، واتمام النعمة ، والهداية ، والنصر • للاشعار بأن كل واحد مما انتظم فى سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر مترتبة على صفة من صفاته تعالى (٢٩) :

وفى قوله تعالى « انا فتحنا » اخبار عن صلح الحديبية وهو المشهور عند الجمهور وروى ذلك عن ابن عباس وأنس والزهرى • وانما سمى الصلح فتحا : اما لاشتراكهما فى الظهور والغلبة على المشركين

---

(٢٧) تفسير أبى السعود ٣/٨١ •
(٢٨) الفتح /١-٣ •
(٢٩) تفسير أبى السعود /١٠٤

فانهم ما سألوا الصلح الا بعد أن ظهر المسلمون عليهم ، وأما لأن ذلك الصلح صار سببا لفتح مكة (٣٠) .

وعلى ذلك فالتسمية على الأول من باب الاستعارة التبعية والتعبير عن ذلك بالماضى لتحققه ، وفيه من تسلية قلوب الأصحاب وتسليتهم حيث صاروا محزونين غاية الحزن من تأخير الفتح ما فيه : ولما كان صلح الحديبية لم يقع فان التعبير بالماضى عن المستقبل استعارة تبعية يقول السيد السند (٣١) « اعلم ان التعبير عن المضارع بالماضى وعكسه يعد من باب الاستعارة . بان يشبه غير الحاصل بالحاصل فى تحقق الوقوع ، ويشبه الماضى بالحاضر فى كونه نصب العين واجب المشاهدة ، ثم يستعار لفظ أحدهما للآخر . فعلى هذا تكون استعارة الفعل على قسمين . أحدهما أن يشبه الضرب الشديد مثلا بالفعل ، ويستعار له اسمه ثم يشتق منه بمعنى ضرب ضربا شديدا ، والثانى أن يشبه الضرب المستقبل بالضرب الماضى فى تحقق الوقوع له ، فيستعمل فيه ضرب . فيكون المعنى المصدرى أعنى الضرب ، موجودا فى كل واحد من المشبه والمشبه به لكنه قيد فى كل منهما بقيد يغاير الآخر فصح التشبيه لذلك » .

وعلى الثانى : من باب المجاز المرسل ، والتعبير عن ذلك بالماضى مع أنه لم يكن واقعا يوم النزول بناء على ما روى عن المسور بن مخرمة من أن السورة نزلت من أولها الى آخرها بين مكة والمدينة من باب مجاز المشارفة نحو من قتل قتيلا

هذا : وقد جوزا بن يعقوب وتابعه الدسوقى : كون التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى مجازا مرسلا اذ يقول : « التعبير عن المستقبل

---

(٣٠) ينظر اسباب النزول . الواحدى ٢٥٥ . ط مؤسسة الحلبى ١٩٦٨ ، روح المعانى ٢٥/٨٢-٩١ .

(٣١) حاشية على المطول ٢٧٥

يلفظ المـاضى يحتمل أن يكون من المجاز المرسل والعلاقة ما بينهما من التضاد ، والضد أقرب خطورا بالبـال فبينهما شبه المجاورة لتقارنهما غالبا فى الخيال ، وعليه فتنتفى المبالغة المقصورة وهى الإشعار بتحقق الوقوع وأن هذا المستقبل كالمـاضى لأن المجاز المرسـل ليس فيه الا أبلغية كون التعبير فيه لمـا كانت الدلالة انتقالية صـار كدعوى الشىء بدليله ، ويحتمل أن يكون من مجاز التشبيه ووجه الشبه تحقق الوقوع فى كل منهما ، وهو فى المعنى أظهر لبروزه الى الوجود ، فيفيد المبالغة السابقة ، لكن المعهود فى الفعل أن استعارته تبعية ، فيكون التشـبيه فى المصدر ، وهو فى المـاضى والمستقبل واحد ، فيتخذ المشبه والمشبهبه ويمكن أن يجاب بأن المصدرين الواقع التشبيه فيهما مقيد بالوقوع فى المستقبل ، وتكون التبعية فى مجرد التعبـير بالفعـل ، فيكون الزمان والحصول داخلين فى التشبيه ، أو يدعى أن الاستعارة التحقيقية تجرى فى الأفعال ولا حرج فى الاصطلاح » (٣٢) .

والتأكيد بان للاعتناء لا لرد الانكار ، واسـناد الفتح المراد به الصلح الذى هو فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه عز وجل مجاز من اسناد ما للقابل للفاعل الموجد ، وفى ذلك من تعظيم شـأن الصلح والرسول عليه الصلاة والسلام ما فيه » (٣٣) وأيا ما كان المراد بالفتح فحذف المفعول « للقصد الى نفس الفعل ، والايذان بأن مناط التبشير نفس الفتح الصادر سبحانه ، لا خصوصية المفتوح » (٣٤) .

والتعبير عنه تعالى فى مقام المغفرة بالاسم الجليل المشعر بصفات الجمال والجلال يشـعر بسـبق مغفرته تعالى على عذابه ، ولمـا كان

---

(٣٢) شروح التلخيص (عروس الأفراح ، حاشية الدسوقى) ٤/
(٣٣) روح المعانى ٢٦/ ٨٤ .
(٣٤) تفسير أبى السعود ٨/ ١٠٤

الغفران واتمام النعمة والهداية والنصر ، يشترك فى اطلاقها الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره لقوله تعالى:«ويغفر مادون ذلك لمن يشاء»(٣٥) وقوله « انهم لهم المنصورون » (٣٦) وكان الفتح لم يبق لأحد الا للرسول صلى الله عليه وسلم أسنده تعالى الى نون العظمة تفخيما لشأنه ، وأسند تلك الأشياء الأربعة الى الاسم الظاهر ، واشتركت الخمسة فى الخطاب له صلى الله عليه وسلم تعظيما لشأنه (٣٧) .

ويمكن أن يكون فى اسناد المغفرة اليه تعالى بالاسم الأعظم بعد اسناد الفتح تعالى اليه بنون العظمة(٣٨) : ايماء الى أن المغفرة مما يتولاها سبحانه بذاته ، وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط ، ولا يعترض بأن النصر كالفتح . اذ أنه فى الفتح أعان ونصر وسهل وقوى وثبت أقدامهم فصح بهذه الأمور أن يضيف ذلك الى نفسه ، أما النصر فانه يكون بسائر وجوه النصرة بالحجة والمعونة وتقوية النفوس والامداد بالملائكة الى غير ذلك ، فيصح بذلك أجمع أن يصف نفسه بأنه نصر الرسول والمؤمنين « واسناد العزة الى النصر مجاز للمبالغة ، والمنصور حقيقة هو النبى عليه الصلاة والسلام ، وأعيد لفظ الجلالة فى « وينصرك الله » لما بعد عما عطف عليه . اذ فى الجملتين قبله ضمير يعود على « الله » وليكون المبدأ مسندا الى الاسم الظاهر والمنتهى كذلك » .

---

(٣٥) النساء /٤٨ .

(٣٦) الصافات / ١٧٢

(٣٧) البحر المحيط ٨/٩٠ .

(٣٨) روح المعانى ٢٦/٩١ ، متشابه القرآن للقاضى عبد الجبار ت د . عدنان زرزور ص ٦١٩ ط بيروت

وقد يقال : ان وصف النصر هنا بالعزة على ما هو الظاهر بناء على أحد معانى العزة وهو قلة الوجود وصعوبة المنال • والمعنى : وينصرك الله نصرا يقل وجود مثله ، يصعب مناله » (٣٩) •

يقول سعد الدين معقبا على الانتقال من التكلم الى الغيبة وقد كثر فى الواحد من التكلم لفظ الجمع تعظيما له ، لعدهم المعظم كالجماعة، ولم يجىء ذلك للغائب والمخاطب فى الكلام القديم وانما هو استعمال المولدين كقوله :

بأى نواحى الأرض أبغى وصالكم وأنتم ملوك ما لمقصدكم نحو

تعظيما للمخاطب ، وتواضعا من المتكلم (٤٠) •

ولكن عبد الحكيم لا يوافقه على ذلك : اذ أن مقتضى كلام سعد الدين أن يكون القرآن واردا على استعمال المولدين وهذا ليس بصحيح وانما استعمال المولدين وارد على أسلوب القرآن يقول(٤١): « المولدة : المحدثون من الشعراء لحدوثهم ، ولقد تمسكوا فى ذلك بما وقع فى القرآن المجيد من قوله تعالى « رب ارجعون لعلى أعمل » (٤٢) وقوله « أنى يكون لهم الخيرة من أمرهم » (٤٣) أى لله والرسول • والجمع للتعظيم ، وقال القاضى فى تفسير قوله تعالى : وقالت امرأة فرعون قرة

---

(٣٩) اوح المعانى نقلا عن الراغب الأصبهانى ٢٦/٩١ ، ٩٢

(٤٠)المطول ١٣٣

(٤١) الحاشية ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، الأطول على التلخيص • العصام ١/١٥٥• المطبعة العامرة /١٢٨٤ هـ •

(٤٢)المؤمنون /٩٩ ، ١٠٠ •

(٤٣) الأحزاب /٣٦ •

عين لى ولك لا تقتلوه » (٤٤) خطـاب بلفظ الجمع للتعظـيم ، وجوز الكشاف فى قراءة الحسن « لتسجننه » (٤٥) بالتاء على خطاب العزيز وحده للتعظيم الى غير ذلك ، وعدم مجيئه فى كلام بلغاء اجاهية لا يدل عى عدم فصاحته فان القرآن مما يستشهد به لا عليه •

★ ★ ★

الثالثة : الانتقال من الخطاب الى التكلم : كقول علقمة الفحل :

طحابك قلب فى الحسان طروب　　بعيد الشباب عصر حان مشيب
يكلفنى ليلى وقد شـط وليها　　وعـادت عواد بيننـا وخطوب

الشاعر فى هذه الأبيات قد جرد من نفسـه انسانا آخر يخاطبه فيقول : أضربك قلب هائم بحب الحسان مشغوف بهن ، حتى كـاد حبل الشباب ينصرم ، ولا ينى أن يطالبنى هذا القلب بوصل ليلى ، ويغريني بها فى وقت عز فيه وصالها ، وحالت ظروف الزمان دونه •

ففى قوله « يكلفنى » اتفقت على المذهبين • أمـا عند الجمهور : فلوجود التعبيرين : اذ انتقل من الخطاب فى « طحابك » الى التكلم فى « يكلفنى » وإخالفته الثانى منهما مقتضى ظاهر الـكلام ، إذ مقتضى الظاهر أن يقول « يكلفك » وأما عند السكاكى فلمخالفته لمقتضى الظاهر وفى قوله « طحابك » اتفقت على رأى السـكاكى فقط لمخالفته مقتضى الظاهر اذ كان مقتضاه أن يقول « طحابى » لأن المقام للتكلم فعدل عنه الى الخطاب (٤٦) •

---

(٤٤) القصص /٩ والقاضى هو أبو السعود ينظر التفسير ٤/٧
(٤٥) يوسف /٣٥ ، الكشاف ٢ / ٣١٩
(٤٦) شروح التلخيص (عروس الأفراح ، حاشية الدسوقى) ٤٦٩/١ ، ٤٧٠

وروى « تكلفنى » بالتاء • على أنه مسند الى ليلى ، والمفعول محذوف ويكون المعنى حينئذ ، تحملنى ليلى شدة فراقها — فان كان الفعل المذكور — والحالة هذه — مسندا الى القلب على أنه خطاب له ، كان فيه التفات آخر من الغيبة الى الخطاب على المذهبين • أما على رأى الجمهور فلوجود التعبيرين ومخالفة ثانيهما لظاهر السياق • اذ عبر أولا عن القلب بالاسم الظاهر وهو من قبيل الغيبة ، ثم عبر ثانيا بطريق الخطاب فى قوله « تكلفنى » وكان مقتضى السياق أن يقول « يكلفنى بالياء » والمفعول حينئذ محذوف أى تكلفنى يا قلب أن أجرع مرفراقها • وأما على رأى السكاكى فامخالفته لمقتضى الظاهر •

يقول السبكى مشيرا الى أن الانتقال فى الالتفات أمر معنوى وكاشفا عن فكرة السكاكى فى الالتفات : « وفى قوله « طحابك » على رأى السكاكى جرد من نفسه حقيقة مثلها ، وخاطبها ، فالضمير واقع فى محله فهو التفات وتجريد ، وعلى رأى غيره هو تجريد فقط•وفى قوله «تكلفنى» التفات على القولين • ولا نقول انه أعاد الضمير على غير الأول • فلا يلزم أن يكون الضميران وهما الكاف والياء لشيئين ، بل أعاده على الأول مدعيا أنه غير الثانى • فان الحقيقة المجردة هى باعتبار الحقيقة عين المجرد عنها ، وباعتبار التجريد غيرها ، فذلك الذى جرده فى قوله «بك» هو فى نفس الأمر نفسه • فالتفت له بهذا الاعتبار ، وبهذا علمنا أن الالتفات فى « بك » على رأى السكاكى • أوضح من الالتفات الذى فى « تكلفنى » على قولهما • لأن فى « بك » خروجا عن ضمير المتكلم الى شىء لا وجود له بالكلية ، وفى « تكلفنى » خروج عن الحقيقة المجردة الى الحقيقة المجرد عنها فهو عدول الى الأصل و « بك » عدول الى الفرع والعدول الى الفرع أبلغ من العدول الى الأصل » (٤٧) •

---

(٤٧) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ١/٤٧٢ـ٤٧٤ •

ولعل السر فى الالتفات من الخطاب الى التكلم فى بيتى علقمة يكمن فى أنه بعد أن جرد من نفسه انسانا آخر يخاطبه محدثا اياه عما فعله القلب به من شغفه بحب الحسان بعد أن انصرم الشباب وحان المشيب • أحس بما ينوء به من تكليف قلبه وصل ليلى فى وقت يعز فيه وصلها لبعد الشقة ، ومحاربة صروف الدهر له ، فالتفت الى نفسه فأجرى الكلام على طريق التكلم ليبث شكواه مما ينوء به وفى ذلك متسع له فى طريقة الشكوى •

أما امثلة هذا النوع من القرآن الكريم • فقد مثل الزركشى له بمثالين الأول خارج عن دائرة الالتفات كما أشار وتبعه فى ذلك السيوطى ، والثانى يصح أن يكون من الالتفات على تأويل • وهذا يدلنا على أن هذا النوع لم يشتهر بين العرب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نفوض علم ذلك الى الله تعالى ولا مجال للتعليل فى ذلك « قد جعل الله لكل شىء قدرا » (٤٨) •

أما ما مثل به الزركشى أولا فهو قوله تعالى : « فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا » (٤٩) ثم يعقب على ذلك بقوله : « وهذا انما يتمشى على قول من لم يشترط أن يكون المراد بالالتفات واحدا فأما من اشترطه فلا يحسن أن يمثل به » (٤٩) وقال السيوطى : ومثاله من الخطاب الى التكلم لم يقع فى القرآن وذكر مامثل به الزركشى وقال : « وهذا المثال لا يصح لأن شرط الالتفات أن يكون المراد به واحدا » (٥٠) •

---

(٤٨) الطلاق/٣

(٤٩) طه /٧٢ ، ٧٣

(٥٠) البرهان فى علوم القرآن ٣/٣١٧

وما مثل به ثانيا فهو قوله تعالى : « قل الله أسرع مكرا ان رسلنا يكتبون ما تمكـــرون » (٥١) ثم قال : « ويمكن أن يمثـــل به على أنه سبحانه نزل منزلة المخاطب » .

و فى الحقيقة أن قوله تعالى « فاقض ما أنت قاض ، انا آمنا بربنا » وان تحقق فيه الانتقال من ضمير المخاطب (أنت) الى ضـــمير المتكلم (نحن) الا أن المراد بالالتفـــات فى الحـــالتين ليس واحـــدا ، اذ أن المخاطب بالضمير الأول « أنت » هو فرعون سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، وذلك عندما آمن السحرة بســـيدنا موسى فتوعدهم قائلا : « لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصـــلبنكم فى جـــذوع النخـــل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى » (٥٢) وأما الضمير فى قوله : « انا آمنا بربنـــا .. » فهو لجمـــاعة المتكلمين المؤمنين قالوا له ذلك بعد قولهم « فاقض ما أنت قاض » وهذا جواب عن تهـــديده بقوله الســـابق أى فاحكم ما أنت حاكم به » وقوله «انما تقضى هذه الحياة الدنيا» مع مابعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد من الأمر بالقضاء . أى انما تصنع ما تهواه، أو تحكم بما تراه فى هذه الحياة الدنيا فحســـب ، وما لنا من رغبة فى عذبها ولا رهبة من عذابها » (٥٣) .

وأما ما مثل به ثانيا وهو قوله تعالى « واذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر فى آياتنا قل الله أسرع مكرا ان رســـلنا يكتبون ما تمكرون » فأسرع هنا : أفعل تفضيل ، ووصف المفضل عليه

---

(٥٠) الاتقان فى علوم القرآن ٣/٢٩٠ السيوطى ت محمد أبو الفضل ابرهم ط الهيئة المصرية ١٩٧٥ . معترك الأقران ١/٣٧٩

(٥١) يونس /٢١ . البرهان ٢/٣١٧ .

(٥٢) ٣طه /٧١

(٥٣) تفسير أبى السعود ٦/٣٠

بالسرعة دل عليه المفاجأة • وأصل المكر : اخفاء الكيد والمضرة ، والمراد به الجزاء والعقوبة على المكر مجازا مرسلا ، أو مشاكلة ، ولا تنافى بينهما ، فكلمة « مكر » مجاز مرسل باعتبار المجاورة ، ومشاكلة لوقوعها فى مقابلة مكرهم : وجملة « ان رسلنا يكتبون ما تمكرون » « تحقيق للانتقام منهم ، وتنبيه على أن ما دبروا فى اخفائه غير خاف على الكتبة فضلا عن منزل الكتاب الذى لا تخفى عليه خافية وفى ذلك تجهيل لهم كما أنها تعليل لأسرعية مكره سبحانه وتعالى » (٥٤) وصيغة الاستقبال فى الفعلين دلالة على الاستمرار التجددى • وهذه الجملة ليست داخلة فى الكلام الملقن كقوله تعالى : « ولو جئنا بمثله مددا » (٥٥) فهو كلام من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن جىء به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد • والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أى لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى ، لو لم نجىء بمثله مددا ، ولو جئنا بقدرتنا الباهرة بمثله مددا ، عونا وزيادة » (٥٦) •

والذى يبدو أن قوله تعالى « ان رسلنا •• » من تلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم للتشديد فى التوبيخ ، ويرى العلامة أبو حيان وتابعه الألوسى فى أن قوله تعالى « ان رسلنا » التفاتا « ولكن من الغيبة الى التكلم » اذ لو أجرى على قوله سبحانه (قل الله) لقيل ان رسله • فلا اشكال فيه من حيث أنه لا وجه لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ان رسلنا • اذ الضمير لله تعالى لاله عليه الصلاة والسلام بتقدير مضاف أى رسل ربنا ، أو بالاضافة لأدنى ملابسة » •

---

(٥٤) روح المعانى ٩٤/١١

(٥٥) الكهف /١٠٩ ا

(٥٦) تفسير أبى السعود ٢٥١/٥

(٥٧) البحر المحيط ١٣٧/٥ ، روح المعانى ٩٥/١١

أما كونه تعالى نزل نفسه منزلة المخاطب فهذا تكلف يأباه كتاب الله تعالى .

هذا : ومن الممكن أن يمثل لتلك الصورة بقوله تعالى : «واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود » (٥٨) فقد عبر عن الذات بطريق الخطاب فى قوله « واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه » ، ثم التفت فعبر عنها ثانيا بطريق التكلم فى قوله « ان ربى رحيم ودود » ففى التعبير الثانى التفات على المذهبين ولعل السر فى الالتفات هنا أن سيدنا شعيبا عليه الصلاة والسلام قصد أن يؤكد لهم أنه ربه كما هو ربهم وأنه يشرف بربوبية الله سبحانه وتعالى له .

وترى فى هذا أن التعرض لوصف الربوبية فيه تلقين للمخاطبين ، وارشاد لهم الى طريق الابتهال فى السؤال . وانما قدم الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة اليها ، أو أن التوبة من متممات الاستغفار ، أو لأن المغفرة هى الغرض المطلوب والتوبة هى السبب اليها . وذلك على أن الاستغفار يغاير التوبة وتكون ثم للتراخى . أما ما نقل عن الفراء من أن ثم هنا بمعنى الواو : فيكون الاستغفار والتوبة بمعنى واحد (٥٩)

ولقد قال بهذا الزمخشرى : اذ يقول : « استغفروا : أمر بالتوحيد والاستغفار فان قلت ما معنى « ثم » فى قوله « ثم توبوا اليه » قلت معناه : استغفروا من الشرك ثم توبوا اليه بالطاعة . ثم يشير الى ما ذهب اليه الفراء فيقول : « أو استغفروا والاستغفار توبة ، ثم أخلصوا التوبة ، واستقيموا عليها كقوله تعالى « ثم استقاموا » (٦٠). ويعقب السمين على قول الزمخشرى « أو استغفروا .. » قائلا : يعنى

---

(٥٨) هود عليه السلام/ ٩٠

(٥٩) فتح القدير . الشوكانى ٢/ ٤٨١

(٦٠) فصلت /٣٠

أن بعضهم جعل الاستغفار والتوبة بمعنى واحد • فلذلك احتاج الى تأويل « توبوا » بأخلصوا التوبة » (٦١) •

أما الصاوى فى حاشيته على الجلالين (٦٢) فيقرر أن الاستغفار مغاير للتوبة اذ يقول : « السين والتاء للطلب ، والمعنى : اسألوه الغفران لذنوبكم فيما مضى ، ثم توبوا اليه فى المستقبل • لأن شرط التوبة • الندم على ما فات ، والاقلاع فى الحال ، والعزم على عدم العود فى المستقبل • فلا يقال الاستغفار هو التوبة » •

وما ذهب اليه المرحوم الصاوى ذهب اليه قبلا الامام ابن قيم الجوزية حيث جعل الاستغفار نوعين (٦٣) : مفرد ، ومقرون بالتوبة• فالمفرد : كقول سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام لقومه « واستغفروا ربكم انه كان غفارا » (٦٤) وكقول سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام لقومه : لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون » (٦٥) والمقرون كقول سيدنا هود عليه الصلاة والسلام لقومه « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا » (٦٦) وقول سيدنا شعيب عليه الصلاة والسلام : « واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود»(٦٧)

---

(٦١) الكشاف ٢/٢٥٨ حاشية الجمل ٢/٣٨٠ •

(٦٢) ١٧٦/٢

(٦٣) مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين١/٢٣٣ ـ ٢٣٦ نشر دار الحديث الطبعة الأولى ١٩٨٣ •

(٦٤) نوح /١٠

(٦٥) النمل/٤٦

(٦٦) هود/٥٢

(٦٧) هود /٩٠

فالاستغفار المفرد كالتوبة ، بل هو التوبة بعينها ، مع تضمنه طلب المغفرة من الله ، وهو : محو الذنب وازالة أثره ووقاية شره ، لا كما ظنه البعض أنها الستر • فان الله يستر على من يغفر ومن لا يغفر له ، ولكن الستر لازم مسماها او جزؤه • فدلالتها عليه اما بالتضمن واما باللزوم

وأما عند اقتران أحد اللفظتين بالأخرى : فالاستغفار : طلب وقاية شر ما مضى • والتوبة : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات أعماله ، فها هنا ذنبان • ذنب قد مضى • فالاستغفار منه : طلب وقايه شره • وذنب يخاف وقوعه • فالتوبة : العزم على أن لا يفعله والرجوع الى الله يتناول النوعين : رجوع اليه ليقيه شر ما مضى ، ورجوع اليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله•

ثم يخلص الى أن التوبة خصت بالرجوع ، والاستغفار بالمفارقة، وعند افراد أحدهما يتناول الأمرين • ولهذا جاء الأمر بهما مرتبا بقوله تعالى : واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه » فان الرجوع الى طريق الحق بعد مفارقة الباطل ، وأيضا فالاستغفار من باب ازالة الضرر ، والتوبة: طلب جلب المنفعة فالمغفرة أن يقيه شر الذنب : والتوبة : أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه وكل منهما يستلزم الآخر عند افراده •

* * *

الرابعة : الانتقال من الخطاب الى الغيبة : كقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ، ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » (٦٨) •

---

(٦٨) النساء /٦٤

فقد عبر عن الذات بطريق الخطاب فى قوله « جاءوك » ثم عبر عنها بطريق العيبة فى قوله « واستغفر لهم الرسول » ففى التعبير الثانى التفات على المذهبين أم عند الجمهور : فلمخالفة ثانى التعبيرين لمقتضى ظاهر السياق • وأما عند السكاكى فلمخالفته لمقتضى ظاهر المقام • اذ مقتضى الظاهر عند الطرفين أن يقال : واستغفرت فعدل عنه الى الغيبة •

وفى التعبير بقوله « واستغفر لهم الرسول » دون « استغفرت » تفخيم لشأن رسول الله عليه وسلم ، حيث عدل عن خطابه الى ما هو من عظيم صفاته ، وتعظيم لاستغفاره عليه الصلاة والسلام حيث أسنده الى لفظ منبىء عن علو مرتبته » (٦٩) •

وفى هذه الصياغة ترى تكريم الله لرسله عليهم الصلاة والسلام والسلام واضحا فى أسلوب القصر « وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » أى وما أرسلنا من رسول لسبب من الأسباب الا لسبب أن يطاع لا لأن يعصى ، ولا لأن يهان ولا لأن يكذب ، ولا غير ذلك من الاسباب المتوهمة فحصر سبحانه وتعالى سبب الارسال فى هذا السبب دون غيره من الأسباب »(٧٠) كما أن فيه تمهيد البيان خطئهم بستر جنايتهم بهشيم اعتذارهم الباطل ، وعدم اطفائها بماء التوبة فطاعة الرسول واجبة لأن ذلك أمره الى المرسل اليهم لأنه مؤد عنه عز وجل فطاعته طاعته ، ومعصيته معصيته ، أو بتيسيره وتوفيقه سبحانه فى طاعته • ولا يخفى ما فى العدول عن الضمير الى الاسم الجليل •

---

(٦٩) الكشاف ٥٣٨/١

(٧٠) الاستغناء فى احكام الاستثناء • شهاب الدين القرافى ت دطه محسن ط بغداد ١٩٨٢ •

وفى التعبير بقوله تعالى « لوجدوا الله توابا رحيما » ما فيه من فضل ترغيب للسامعين فى المسارعة الى التوبة والاستغفار ومزيد تنديم لأولئك المنافقين على ما صنعوا ، لأن ظهور تباشير قبول التوبة وحصول الرحمة لهم ومشاهدتهم لآثارهما نعمة زائدة عليهما ، موجبة لكمال الرغبة فى تحصيلها ، وتمام الحسرة على فواتها . سواء فسر الوجدان بالعلم فيكون المراد : لعلموه مبالغا فى قبول توبتهم والتفضل عليهم بالرحمة ، أو بالمصادفة . فيكون قوله تعالى : توابا : حالا ، ورحيما : بدلا منه ، أو حالا من الضمير فيه »(٧١) ، كما ترى فى وضع الاسم الجامع موضع الضمير ايذانا بفخامته .

ومنه قوله تعالى : « ربنا انك جامع الناس ليوم لاريب فيه ان الله لايخلف الميعاد » (٧٢) فقد عبروا عن الذات الاقدس بطريق الخطاب فقالوا : « ربنا انك جامع الناس » ثم عبروا ثنية بطريق الغيبة فقالوا : « ان الله لايخلف الميعاد » وفى التعبير الثانى : التفات على المذهبين لجيئة على خلاف ما يقتضيه ظاهر السياق ، وعلى غير ما يترقبه السامع . فكان مقتضى الظاهر أن يستمر السياق فى طريق الخطاب ليسير الكلام على وتيرة واحدة فيقال : « انك لا تخلف الميعاد » وهذا ما ينتظره السامع ويترقبه ، ولكنهم لم يلتزموا بذلك ، بل انتقلوا من طريق الخطاب الى طريق الغيبة ، وكان التفاتا على رأى السكاكى لأنه مخالف لظاهر السياق .

هذا : وقوله تعالى « ان الله لا يخلف الميعاد » اما أن يكون تعليلا لمضمون الجملة المؤكدة ، «ربنا انك جامع الناس » ، أو لانتفاء الريب « لاريب فيه » ، أو تأكيدا بعد تأكيد للحكم السابق . وتكون من كلام

---

(٧١) الفتوحات الالهية ٣٩٧/١ ، روح المعانى ٧٠/٥

(٧٢) آل عمران /٩

الداعين • فعلى ذلك يتحقق الالتفات من الخطاب الى الغيبة• وفائدته الاشـــارة الى تعظيم الموعود والاجلال الناشىء من ذكر اليوم المهيب المهائل ، وللاشاعرة بعلة الحكم ، فان الالوهية منافية للاخلاف (٧٣) •

أو تكون من كلامه تقريرا وتصديقا لقولهم : « ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه » • فلا التفات على مذهب الجمهور ، وفيه التفات على مذهب السكاكى وقد رجح ذلك السفاقسى المتوفى ٦٩٧ هـ (٧٤) • وبناء على ذلك فقد ذهب البيضاوى الى أن ذلك من تلوين الخطاب قائلا: «ان الله لا يخلف الميعاد » فان الالهية تنافيه وللاشعار به ، وتعظيم الموعود لون الخطاب ووافقه الشهاب الخفاجى على ذلك قائلا : قوله « ان الالهية تنافيه •••• » يعنى أن العدول عن المضمر المخاطب على ما هو الظاهر الى الاســـم المظهر بغير لفظ الرب المتقدم للدلالة على أن الحكم مترتب على ما يدل عليه اسم الله كما فى التعليق بالوصف • وهذا بملاحظة معناه قبل العلميـــة • وهو المقصـــود من تلوين الخطـــاب والتلوين أعم من الالتفات » (٧٥) •

أما أبو حيان فقد جعل ذلك من الاستئناف قائلا ــ بعد أن أشار الى وجه الالتفات ــ ظاهر العدول من ضمير الخطاب الى الاسم النائب يدل على الاســـتئنـــاف وأنه من كلام الله تعـــالى لا من كلام الراســـخين الداعين (٧٦) •

---

(٧٣) روح المعانى ٣/٩١ ، الفتوحات الالهية ١/٢٤٤ .

(٧٤) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والغاه السيوطى ١/٤٢٥ تحقيق محمد أبو الفضل أبرهم ط الحلبى ١٩٦٥ •

(٧٥) أنوار التنزيل وأسرار التاويل للبيضاوى ١/١٥٠ ، حاشية الشهاب ٣/٨

(٧٦) البحر المحيط ٢/٣٨٧

هذا : **وانك لترى** فى الصياغة ما يبهر العقل • فترى حذف المضاف فى قوله تعالى « ليوم » أى لحساب يوم ، أو لجزاء يوم،فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه تهويلا لما يقع ، أو تكون اللام فى « ليوم » بمعنى « الى » أى جامعهم فى القبور الى يوم القيامة ويكون اسم الفاعل هنا لم يلحظ فيه الزمان اذ من الناس من مات ومنهم من لم يمت ، فنسب الجمع الى الله من غير اعتبار الزمان ، والضمير فى «فيه» عائد على اليوم اذ ان الجملة صفة له • وقيل الضمير المجرور للحكم • أى لاريب فى هذا الحكم • وعلى هذا تكون الجملة لتأكيد الحكم ، ومقصودهم من هذا : عرض كمال افتقارهم الى الرحمة ، وأنها المقصد الأسنى عندهم (٧٧) . والتأكيد فى قوله « انك » لاظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة وقوة اليقين بأحوال الآخرة • لزيد الرغبة فى استنزال طائر الاجابة •

ولكن ما السر فى العدول عن الخطاب الى الغيبة هنا فى قوله « ان الله لا يخلف الميعاد » ولم يحدث ذلك فى آخر السورة فى قوله تعالى : « انك لا تخلف الميعاد » (٧٨) ؟

فى الحقيقة ان الالتفات انما جاء فى صدر السورة لأن المقام يقتضيه لأن الالهية تقتضى الخير والنشر لتنصف المظلومين من الظالمين ، فكان العدول الى ذكر الأعظم أولى • أما فى آخر السورة فالمقام مقام الطلب للعبد من ربه أن ينعم عليه بفضله ، وأن يتجاوز عن سيئاته فلم يكن فيه ما يقتضى العدول عن الاصل المستمر (٧٩) •

---

(٧٧) البحر المحيط٢/٣٨٧ ، روح المعانى ٣/٩١

(٧٨) آل عمران ١٩٤

(٧٩) البرهان فى علوم القرآن ٣/٣٣١

ومنه قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربوا عند الله ومـــا آتيتم من زكـــاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » (٨٠) ففي قوله تعالى : « فأولئك هم المضعفون » التفات على المذهبين، أما على رأى الجمهور فلوجود تعبيرين يخالف أحدهما الآخر ،فالأول للخطاب والثانى للغيبة ، وأما على رأى السكاكى فلمخالفته ظاهر السياق • والغرض منه : التعظيم • يقول الزمخشرى وتابعه ابو حيان : « وهذا التفات حسن • كأنه قال للائكته وخواص خلقه • فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون • فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون • والمعنى : المضعفون به • لأنه لابد من ضمير يرجع الى ما (٨١) • وانما احتاج الى ذلك لأن اسم الشرط ليس بظرف • فلابد أن يكون فى الجواب ضـــمير يعود عليه يتم به الربط •

هذا اذا كان ذلك كذلك • أما اذا كان التقدير : « فمؤتوه أولئك هم المضعفون » ويكون المراد من التعبير التعميم • بأن يقصد بأولئك هؤلاء وغيرهم • والراجع الى «ما » محذوف ان جعلت موصولة • وكذلك ان جعلت شرطية • أى فأولئك هم المضعفون به • او فمؤتوه (على صيغة اسم الفاعل) أولئك هم المضعفون • والحذف لما فى الكلام من الدليل عليه ، وعلى تقدير « مؤتوه » العام لا يكون هنا التفات بالمعنى المتعارف • ولكننى أرى أنه على تقدير « فمؤتوه أولئك هم المضعفون » لا يخرج الكلام عن الالتفات • لانه يصدق على المبتدأ المحذوف تعريف الالتفات فانه نقل من الخطاب الى الغيبة اللهم الا أن يقال انه لكون المؤتين أعم من المخاطبين يخرج عنه (٨٢) •

---

(٨٠) الروم /٣٩

(٨١) الكشاف ٣/٢٢٣ . البحر المحيط ١٧٤/٧ . النهر المـاد م البحر المحيط (حاشية البحر المحيط ١٧٣/٧)

(٨٢) ينظر حاشية الشهاب ١٢٤/٧

وقد رجح الزمخشري وجود الالتفات في هذه الآية نظرا لأنه أملأ بالفائدة وفي الحقيقة أن ما ذهب اليه جار الله رضي الله عنه يرجع الى عدة أمور : منها الاشارة بأولئك تعظيما لهم ، تفريع الملائكة عليهم السلام بمدحهم ، ما في نفس الالتفات من حسن ، ما في أولئك على هـذا من الفائدة المقررة في نحو قول حاتم الطائي :

فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه وان عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

حيث جاء المسند اليه اسم اشارة وكان الغرض من ذلك التنبيه على أن المشار اليه المعقب بأوصاف جدير من أجل تلك الأوصاف بما يذكر بعد الاشارة • كما في قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » بعد قوله « هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » (٨٣) فاسـم الاشارة أفاد زيادة الدلالة على المقصود من اختصاص المذكورين قبله باسـتحقاق الهدى والفلاح من ربهم •

وبالروعة النظـم القرآني • انه « تنزيل من حكيم حميد » (٨٤) فالمعنى الذي تشرئب اليه النفوس وتهفو اليه القلوب أملا في مضاعفة الثواب عند الله لا يتأتى الا بذلك الالتفـات • ترى ذلك هـنا وفي غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى •

فالمعنى هنـا لا يمكن أن يؤدى بغير الالتفـات ، اذ أن الذي تقتضيه المقابلة أن يقـال : « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فهو يربو عند الله » الا أنه غير في العبـارة ، اذ أثبت غير ما قبله • وفي النظم اذ أتى

---

(٨٣) البقرة /٣-٥ • بغية الإيضاح ٨١/١
(٨٤) فصلت /٤٢

فيما قبل بجملةفعلية ، وهنا بجملة اسمية مصدرة باسم الاشـارة مع ضمير الفصل لقصد المبالغة ، فأثبت لهم المضـاعفة التى هى ابلغ من مطلق الزيادة على طريق التأكيد بالاسمية والضـمير وحصر ذلك فيهم بالاستحقاق مع ما فى الاشارة من التعظـيم لدلالته على علو المرتبـة وذكر المؤتى (٨٥) .

وما أروع الالتفات لعدم الانتفـات فى قوله تعالى « وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتهـا ، وما عند الله خـير وأبقى أفلا تعقلون » على قراءة أفلا يعقلون بالياء (٨٦) . عند أبى عمرو . فعلى قراءة « تعقلون » بالتاء : توبيخ أى : أفلا تتفكرون فلا تعقلون هـذا الأمر الواضح ، فتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير،وتخافون على ذهاب ما أصـبتموه من متاع الحياة الدنيا وتمنعون عن اتباع الهدى المفضى الى ما عند الله تعـالى لذلك . أما على قراءة اليـاء : فتحقق الالتفات من الخطاب الى الغيبة . وهذا أبلغ فى الموعظة فقد أعرض عن خطابهم اشعارا بأنهم لعدم عقلهم لا يصلحون للخطاب فالالتفات عنا زاجرا له » (٨٧) ويرى الشهاب الخفاجى أن هذه النكتة خاصة بهذا المقام .

★ ★ ★

الخامسة : الانتقال من الغيبة الى التكلم : كقوله تعالى : « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون

---

(٨٥) الفتوحات الالهية ٣٩٦/٣ ، روح المعانى ٤٦/٢١

(٨٦) القصص /٦٠ ، البحر المحيط ١٢٧/٧ ، كتاب السبعة فى القرآن لابن مجاهد ٤٩٥

(٨٧) لبحر المحيط ١٢٧/٧ ، حاشية الشهاب ٨١/٧ .

يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون • وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياى فارهبون • وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون » فقد التفت عن الغيبة فى قوله « انما هو اله واحد » الى التكلم فى قوله « فاياى فارهبون » وفى التعبير الثانى التفات على المذهبين أما على مذهب الجمهور فلوجود التعبيرين ومخالفة الثانى منهما للأول • وأما على رأى السكاكى فلمخالفته لظاهر السياق • كما أن فى التعبير الأول « انما هو اله واحد» التفاتا على رأى السكاكى من التكلم الى الغيبة • لأنه يكتفى بكون الأسلوب الملتفت عنه حق الكلام ، وان لم يسبق الذكر على ذلك الوجه

ولما كان المولى جل وعلا يحذر الناس من الاشراك به ويخوفهم من عاقبة شركهم فى قوله « وقال الله لا تتخذوا ••• » — بعد أن بين لهم أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض يخضعون الخضوع والانقياد الطبيعى ، وما يجرى مجراه من عبدة الملائكة حتى لا يتصور منهم عدم الانقياد أصلا لله عز وجل — كان ذلك لا يتأتى الا بطريق الالتفات من الغيبة الى التكلم لا أن يكون الكلام على نسق واحد ، او أن يكون ابتداء الآية بلفظ المتكلم ، لأن ذلك أبلغ فى الترهيب • يقول جار الله : (٨٨) « فاياى فارهبون نقل الكلام عن الغيبة الى التكلم ، وجاز لأن الغائب هو المتكلم • وهو من طريقة الالتفات ، وهو أبلغ فى الترهيب من قوله « واياه فارهبون » ومن أن يجىء ما قبله على لفظ المتكلم » ويوضح العلامة قطب الدين الرازى رحمه الله قائلا(٨٩) «نقل الكلام عن الغيبة الى التكلم أبلغ فى الترهيب من اجرائه على سنن واحد

---

(٨٨) الكشاف ٢/٤١٢

(٨٩) حاشية قطب الدين الرازى على الكشاف ٨٩٨ ت د • أيوب عبد العزيز أيوب رسالة دكتوراه • مخطوط بكلية اللغة العربية .

أما على سبيل الغيبة بأن يقال : انما هو اله واحد فاياه فارهبون فلأن الترهيب من الحاضر المواجه أبلغ من الغائب لا سيما بعد وصفه بالألوهية والوحدانية • وأما على سبيل التكلم ، بأن يقال : انما أنا اله واحد فاياى فارهبون » فان الغائب اذا وصف بالالهية والوحدة ، تمكن فى ذهن السامع عظمته وجلاله نضل تمكن ، ثم لما بين أن ذلك الجليل المتعالى هو المتكلم الحاضر ، ولابد من الترهيب منه ، كان ذلك أبلغ فى الترهيب مما اذ لم يكن بعد ذلك التمكن » •

كما ترى قوله « فاياى فارهبون » افادة الحصر • وهو ألا يرهب الخلق الا منه ، وألا يرغبوا الا فى فضله واحسانه ، وذلك لأن الموجود اما قديم واما محدث • أما القديم الذى هو الاله فهو الواحد ، وأما ما سواه فمحدث وانما حدث بتخليق ذلك القديم وايجاده ، واذا كان كذلك فلا رغبة الا اليه ، ولا رهبة الا منه فبفضله تندفع الحاجات ، وبتكوينه تنقطع الضرورات •• ولذا يقول الفخر الرازى مشيرا الى وجه الالتفات •

ولما ثبت أن المتكلم بهذا الكلام اله • فحينئذ ثبت أنه لا اله للعالم الا المتكلم بهذا الكلام فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة الى الحضور (٩٠) •

كما ترى السياق يؤكد وحدانية المولى وينهى عن الاشراك به ، ففى قوله (٩١) « وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين» اظهار الفاعل ، وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر للايذان بأنه تعالى متعين الألوهية ، والمنهى عنه هو الاشراك به ، لا أن المنهى عنه هو مطلق اتخاذ الهين بحيث يتحقق

---

(٩٠) تفسير الفخر الرازى (المسمى التفسير الكبير) ٢٠/٤٩ ط بيروت ، البحر المحيط ٥ / ٥٠١

(٩١) روح المعانى ١٤/١٦١

الانتهاء عنه برفض أيهما كان ، ولم يذكر المقول لهم للعموم • أى قال الله لجميع المكلفين بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام » •

★ ★ ★

وانما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك (٩٢) ، دلالة على أن مساق النهى هى الا ثنينية ، وأنها منافية للالوهية • كما أن وصف الاله بالوحدة فى قوله « انما هو اله واحد » للدلالة على أن المقصود اثبات الوحدانية ، وأنها من لوازم الالهية ، وأما الالهية فأمر مسلم الثبوت له سبحانه واليه أشير حيث أسند القول » •

كما ترى القصر المؤكد لوحدانيته تعالى « انما هو اله واحد » وهو قصر موصوف على صفة • اذ أنه لما نهى عن اتخاذ الهين ، واستلزم ذلك النهى عن اتخاذ آلهة أخبر تعالى • أنه لا اله الا هو بأداة الحصر والتأكيد بالوحدة » (٩٣) •

★ ★ ★

وبعد أن أثبت أنه الواحد وأن الرهبة انما تكون منه وحده أخبر بأن له ما فى السموات وما فى الأرض وأن الدين « واصبا » له • سواء فسرت كلمة « واصبا » بأن المراد منها : الواصب : أى الواجب الثابت لأن كل نعمة منه • فالطاعة واجبة على كل منعم عليه ، أو من الوصب: أى : وله الدين ذا كلفة ومشقة ، أو : وله الجزاء ثابتا دائما سرمدا لا يزول • يعنى الثواب والعقاب (٩٤) • فقد التفت من التكلم فى قوله

---

(٩٢) تفسير أبى السعود ٥/١١٩

(٩٣) البحر المحيط ٥/٥٠١،البرهان فى علوم القرآن ٢/٤٣٣_٤٣٥

(٩٤) الكشاف ٢/٤١٣ ، البحر المحيط ٥/٥٠١ ، الفتوحات الالهية ٢/٥٧٥

« فاياى فارهبون » الى الغيبة فى قوله « وله ما فى السموات وما فى الأرض .. » .

وهذا دليل على أنه المنفرد بالألوهية والوحدانية اذ غيره لا يخلو اما أن يكون فى السموات أو فى الأرض ، وكل بما فيها مملوك لله ، فلا يصح ولا يليق اتخاذ غيره الها . وترى التقديم فى قوله « وله ما فى السموات وما فى الأرض » ، « له الدين واصبا » للاختصاص . ولذا جاء ختام الآية « أفغير الله تتقون » (٩٥) وهو استفهام يتضمن التوبيخ والتعجب . أى بعد ما عرفتم وحدانيته وأن ما سواه له ، ومحتاج اليه كيف تتقون وتخافون غيره ولا نفع ولا ضرر يقدر عليه ؟ (٩٦) أو تذكرون الهمزة للانكار ، والفاء للتعقيب ، والمنكر : تقوى غير الله تعالى لا مطلق التقوى ، ولذا قدم الغير ، وأولى الهمزة لا للاختصاص حتى يرد أن انكار تخصيص التقوى بغيره سبحانه لا ينافى جوازها وقيل : يصح أن يعتبر الاختصاص بالانكار . فيكون التقديم لاختصاص الانكار ، لا لانكار الاختصاص .

ومنه قوله تعالى : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها االه مع الله ، بل هم قوم يعدلون » (٩٧) فقد التفت من الغيبة فى قوله « أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء الى التكلم فى قوله « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة .... » والغرض من الالتفات هنا :

---

(٩٥) البحر المحيط ٥/٥٠٢
(٩٦) روح المعانى ١٤/١٦٤
(٩٧) النمل ٥٩/٦٠

تأكيد (٩٨) معنى اختصاص الفعل بذاته ، والايذان بأن انبات الحدائق المختلفة الاصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد ، لا يقدر عليه الا هو وحده ، ومعنى تأكيد اختصاص الفعل بذاته : تأكيد معنى اختصاص الفعل وهو الاثبات بذاته ، لأنه لو قيل أنبت أفاد اختصاص الانبات به بحكم المقابلة بين خلق الشركاء وخالق الأرض والسماء ، فاذا التفت ونسب الفعل لذاته تأكد ذلك الاختصاص لضم اسناد الفعل لذاته الى المقابلة ، والايذان بأنه لايقدر عليه غيره من ضمير العظمة دفعا لتوهم أن غيره له قدرة عليه كما اذا بذر وسقى بأنه هو الخالق لمباديها التى لا قدرة لأحد عليه كالأرض والسماء وانزال الماء (٩٩) .

وقد رشح هذا الاختصاص بقوله : ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، لأنه لما كان خلق السموات والأرض وانزال الماء لا شبهة للعاقل فى أن ذلك كله لا يكون الا لله ، وكان الانبات مما قد يتسبب فيه الانسان بالبذر والسقى والتهيئة ، ويسوغ لفاعل السبب نسبة فعل المسبب اليه بين تعالى اختصاصه بذلك بطريق الالتفات ، وتأكيد ذلك بقوله : ما كان لكم أن تنبتوا شجرها فالمتسبب لذلك قد لا يأتى على وفق مراده، ولو أتى فهو جاهل بطبعه ومقداره ، وكيفيته ، فكيف يكون فاعلالها(١٠٠)

ثم ترى الحق يضرب عن تقريعهم وتوبيخهم بما تقدم ، وينتقل الى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب الى الغيبة فيقول : « بل هم قوم يعدلون » أى يعدلون بالله غيره ، أو يعدلون عن الحق الى الباطل .

---

(٩٨) الكشاف ٣/١٥٥

(٩٩) حاشية الشهاب ٧/٥٣ ، ٥٤

هذا : وذكر النعم التى فى هذه الآية يقتضيها المقام • لأنه لما كان قوله تعالى « آ الله خير أما يشركون » » : تأكيدا لهؤلاء السفهاء انه هو الخير ، عدد سبحانه وتعالى الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله ، كما عددها فى غير موضع من كتابه توقيفا لهم على ما أبدع من المخلوقات ، وأنهم لا يجدون بدا من الاقرار بذلك لله تعالى •

ونكن الذى يلفت النظر هنا هو كثرة الاستفهام فى هذه الآيات ابتداء من الآية التاسعة والخمسين حتى نهاية الآية الثالثة والستين • اذا كان أكثر استفهامات القرآن لا تحتاج الى جواب لأنها من عالم الغيب والشهادة والغرض منها التقريع فما المراد بها فى هذه المواطن ؟ فى الحقيقة أن المقصود من هذه الاستفهامات التبكيت والتهكم والتوبيخ لأنه من المعلوم أنه لا خير فيما أشركوه أصلا ، حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه ، وانما هو الزام لهم وتبكيت وتهكم بحالهم لأنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله ، ومن المسلمات أنه لا يؤثر عاقل شيئا على شىء الا لداع يدعوه الى ايثاره كزيادة خير ومنفعة ، فقيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما آثروا ، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ، ولكن هوى وعبثا ليتنبهوا على الخطأ الفرط ، والجهل الموبط ، وينبذهم المعقول ، وليعلموا أن الايثار يجب أن يكون للخير الزائد • ونحوه ما حكاه القرآن على لسان فرعون « أم أنا خير من هو الذى هو مهين » (١٠١) مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التى كانت تجرى من تحته • وأم هذه متصلة عاطفة على لفظ الجلالة ، أو جود المعادل وهو تقدم همزة الاستفها والتقدير : أيهما خير • و «خير» اما اسم التفضيل على زعم الكفار والزام الخصم ، أو صفة لا تفضيل فيها ، وما بمعنى

---

(١٠٠) البحر المحيط ٩٧/٧

(١٠١) الزخرف /٥٢ وينظر الكشاف ١٥٤/٣

الذى » (١٠٢) وقيل مصدرية على حذف مضاف من الأول . أى أترجيد الله خيرا أم شرككم . وأما فى قوله « أم من خلق السموات والأرض » فهى منقطعة لعدم شرط كونها متصلة ، وهو تقدم الهمزة عليها فهى بمعنى بل الاضرابية ، وهمزة الاستفهام التوبيخى . أى هى منقطعة لفظا وما فى ضمنها من كلمة بل للاضراب والانتقال من التبكيت تعريضا الى التصريح به خطا بالمزيد التأكيد والتشديد ، ومن كلمة الهمزة للاستفهام التقريرى أى حملهم على الاقرار بالحق .

ومنه قوله تعالى : وقد تكرر فيه الالتفات فى موضع واحد « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » (١٠٣) ففى هذه الآية : نرى التفاتا من الغيبة فى قوله « الذى أسرى » الى التكلم فى قوله « باركنا ، لنريه ، ثم التفاتا من هذا التكلم الى الغيبة فى قوله « انه هو السميع البصير » . ان أعدنا الضمير على الله تعالى أما على قراءة الحسن : « ليريه » بالياء من تحت أى الله تعالى . فعلى هذه القراءة يكون فى الآية أربعة التفاتات . وذلك أنه التفت أولا من الغيبة فى قوله « الذى أسرى بعبده » الى التكلم فى قوله « باركنا » ثم التفت ثانيا من التكلم فى « باركنا » الى الغيبة فى « ليريه » على هذه القراءة . ثم التفت ثالثا من هذه الغيبة فى قوله « انه هو السميع البصير » على أن الضمير لله تعالى .

---

(١٠٢) ينظر حاشية الصاوى ١٦٧/٣ ، الفتوحات الالهية ٢٢١/٣ تفسير أبى السعود ٢٩٣/٦

(١٠٣) الاسراء /١ .

أما على قول نقله أبو البقاء العكبرى أن الضمير فى « انه » هو للنبى صلى الله عليه وسلم فلا يجىء ذلك ، ويكون فى قراءة العامة التفات واحد ، وفى قراءة الحسن ثلاثة » (١٠٤) .

ولو جاء الكلام على مساق الاول وهو قوله : سبحان الذى أسرى .... لقيل : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى بارك حوله لنريه من آياته انه هو السميع البصير » .

وصرف الكلام من الغيبة فى قوله « سبحان الذى اسرى بعبده » الى صيغة المتكلم المعظم فى « باركنا ونريه آياتنا » لتعظيم البركات والآيات ، لأنها كما تدل على تعظيم مداول الضمير تدل على عظم ما أضيف اليه وصدر عنه ، ونكتة ذلك : أن قوله تعالى « الذى أسرى بعبده ليلا » يدل على مسيره عليه الصلاة والسلام من عالم الشهادة الى عالم الغيب ، فهو بالغيبة أنسب ، وقوله تعالى : « باركنا حوله » دل على انزال البركات ، فناسب تعظيم المنزل ، والتعبير بضمير المتكلم متكفل بذلك ، وقوله سبحانه « لنريه » على معنى بعد الاتصال وعز الحضور فيناسب التكلم معه ، وأما الغيبة : فلكونه صلى الله عليه وسلم لذلك ليس من عالم الشهادة . ولذا قيل : ان فيه اعادة الى مقام السر والغيبوبة من هذا العالم . والغيبة بهذا أليق . وقوله تعالى « من آياتنا » عود الى التعظيم .

وأما الغيبة فى قوله سبحانه « انه هو السميع البصير » على تقدير كون الضمير له تعالى كما هو الأظهر وعليه الأكثر ، فليطابق قوله تعالى

---

(١٠٤) الكشاف ٢/٤٣٧ . الفتوحات الالهية ٢/٦٠٩ . التبيان فى اعراب القرآن ٠ العكبرى ٨١١ . البرهان فى علوم القرآن ٢/٣٢٣

« يعبده » ويرشح ذلك الاختصاص بما يوقع هذا الالتفات أحسن مواقعه ، وينطبق عليه التعليل أتم انطباق ، اذ المعنى : قربه وخصه بهذه الكرامة لأنه سبحانه مطلع على أحواله ، عالم باستحقاقه لهذا المقام » (١٠٥) .

قال الطيبى (١٠٦) : « اذا عاد الضمير على المولى تعالى : فيكون المعنى : انه هو السميع لأقوال ذلك العبد ، البصير بأفعاله ، بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الهوى مقرونة بالصدق والصفاء ، مستأهلة للقرب والزلفى . وأما على تقدير كون الضمير للصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم كما نقله أبو البقاء عن بعضهم فيكون المعنى : السميع لكلامنا ، البصير لذاتنا . ويرى الجلبى أن ذلك لا يبعد ، وعليه يكون المعنى : ان عبدى الذى شرفته بهذا التشريف هو المستأهل له ، فانه هو السميع لأوامرى ونواهى ، العامل بهما ، البصير . الذى ينظر بنظر [illegible] والزلفى بمعنى ، او البصير بالآيات التى أريناه اياها . كقوله تعالى : ما زاغ البصر وما طغى » (١٠٧) فقيل لمطابقة الضمائر العائدة عليه ، وكذا لما عبر عنه فى قوله سبحانه « عبده » . وقيل : للاشارة الى اختصاصه صلى الله عليه وسلم بالمنح والزلفى وغيبوبة شهوده فى عين . بى يسمع ، وبى يبصر ، كما لا يمتنع اطلاق السميع والبصير على غيره تعالى ، كما توهم لا مطلقا ، ولا هنا ، كما يرى الطيبى . أنه لعل السر فى مجىء الضمير محتملا للأمرين : الاشارة الى أنه صلى الله عليه وسلم انما رأى أى رب العزة ، وسمع كلامه به سبحانه . وتوسيط ضمير الفصل . اما لأن سماعه تعالى بلا أذن ،

---

(١٠٥) ينظر حاشية الشهاب ٦ص٧ ، ٨ ، روح المعانى ١٥/١٣، ١٤

(١٠٦) المرجع ذاته

وبصره بلا عين على نحو لا يشـــاركه فيه تعالى أحد ، واما للاشـــعار باختصاصه صلى الله عليه وسلم بتلك الكرامة •

أما ما ذهب اليه ابن عطية من أن قوله تعالى : « انه هو السميع البصير » وعيد للكفار على تكذبهم للنبى صلى الله عليه وسلم فى أمور الاسراء • أى : انه هو السميع لمـــا تقولون أيها المكذبون البصير بما تفعلون فيعاقبكم على ذلك فبعيد (١٠٨) •

هذا : وسر التعبير بقوله (عبده) دون نبيه أو رسوله : اشارة الى أن وصف العبودية أخص الأوصاف واشرفها • لأنه اذا صحت نسـبه العبد لربه بحيث لا يشرك له فى عبادته أحد فقد فاز وسعد • ولذا ذكره الله فى المقدمات الشريفة كما هنا • وفى مقام الوحى قال تعالى : فأوحى الى عبده ما أوحى » (١٠٩) وفى مقام الدعوة قال تعالى « وأنه لما قام عبد الله يدعوه » (١١٠) وهناك وجه آخر وهو خوف ضلال أمته به كما ضلت أمه عيسى عليه السلام به حيث قالوا ابن الله ، واللام فى قوله « لنريه » لام الحكمة : أى أى حكمة اسراؤنا به رؤيته من آياتنا • ومن فى قوله « من آياتنا » للتبعيض أى : لنريه بعض آياتنـــا • وانما أتى بها تعظيمـــا لآيات الله ، أى أن محمـــدا وان رأى ما رأى من الآيات العظيمة والعجائب الفخيمة فهو بعض بالنسبة لآيات الله ، وعجـــائب قدرته ، وجلال حكمته •

ولكن هل يقتضى ذلك أن يكون الذى رآه ســـيدنا محمد أقل من

---

(١٠٧) النجم /١٧

(١٠٨) البحر المحيط ٦/٦

(١٠٩) النجم /١٠

(١١٠) الجـن /١٩ وينظر حـاشية الصـــاوى على الجـــلالين ٢٨١/٢ ، ٢٨٢

الذى رآه سيدنا ابراهيم عليهما الصلاة والسلام ؟ لأن ما هنا يقتضى التبعيض وقوله فى حق سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض » (١١١) لا يقتضى التبعيض ؟

فى الحقيقة أن ملكوت السموات والأرض بعض الآيات العظيمة التى رآها سيدنا محمد فسيدنا ابراهيم رأى بعض البعض .

* * *

السادسة : الانتقال من الغيبة الى الخطاب : كقوله تعالى : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون . كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون »(١١٢) فهنا التفات من الغيبة فى « أولئك هم الخاسرون » الى الخطاب فى قوله « كيف تكفرون بالله » وفى التعبير الثانى التفات على المذهبين . أما عند الجمهور فلمخالفة ثانى التعبيرين ظاهر السياق . وأما عند السكاكى فلمخالفته لمقتضى ظاهر المقام . اذ مقتضى الظاهر عند الطرفين ان يقال « كيف يكفرون » بالياء . وفائدة هذا الالتفات : أن الانكار اذا توجه للمخاطب كان أبلغ من توجهه الى الغائب لجواز أن لا يصله الانكار ، بخلاف من كان مخاطبا ، فان الانكار عليه أردع له عن أن يقع فيما أنكر عليه .

والتعبير عن هؤلاء باسم الاشارة للتنبيه على أنهم جديرون باتصافهم بما ذكر بعده والغرض منه التحقير . اذ أنهم جمعوا أوصافا ذميمة تراها فى قوله تعالى : « وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون

---

(١١١) الأنعام/٧٥

(١١٢) البقرة /٢٧ ، ٢٨ ، الكشاف ١/٢٦٩، البحر المحيط١٢٩١

عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به ن أ يوصل ويفسدون فى الأرض » فاسم الاشـــارة هذا أفاد زيادة الدلالة على المقصـــود من اختصاص هؤلاء المذكورين باستحقاق الخسران المبين •

والمراد بالاستفهام هنا : التوبيخ والانكار • فكأنه قال : لاينبغى أن توجد فيكم تلك الصفات التى يقع عليها الكفر ، فلا ينبغى أن يصدر منكم الكفر • لأن صـــفات الكفر لازمـــة له ، ونفى اللازم يوجب نفى الملزوم (١١٣) ويرى الشيخ الصاوى أن الاحســـن أن يكون المراد بالاستفهام هنا التعجب والتوبيخ معا • وهو الردع والزجر • والتعجب هنا بالنسبة للخلق » (١١٤) •

ولكن هل لاستعمال « كيف » هنا دون الهمزة مزية ؟

نعم • فان الانكار بالهمزة انكار لذات الفعل ، والايذان باستحالته فى نفسه ، أو لقوة الصارف عنه • أما الانكار بكيف : فهو انكار لحاله ، وانكار حاله انكار لذاته ، لأن ذاته لا تخلو من حال يقع عليها ، فاستلزم انكار الحـــال انكار الذات ضرورة وهو أبلغ • اذ يصـــير ذلك من باب الكناية حيث قصد انكار الحال • والمراد انكار وقوع ذات الكفر» (١١٥)

ولكن الاستفهام الانكارى هنا ليس بمعنى انكار الوقوع كما فى قوله تعالى . « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاســـتقيموا لهم ان الله يحب المتقين » (١١٦) بل هو هنا بمعنى انكار الواقع واستبعاده والتعجب منه ••

---

(١١٣) الفتوحات الالهية ١/٣٤ ، ٣٥

(١١٤) حاشية الصاوى ١/١٨

(١١٥) البحر المحيط ١/١٢٩ ، الكشاف ١/٢٦٩

(١١٦) العنكبوت /٧ ، تفسير أبى السعود ١/٧٧ ، ٤/٤٤

ولذلك أتى بالفعل « تكفرون » مضارعا ، ولم يأت به ماضيا ، وان كان الكفرة قد وقع منهم • لأن الذى أنكر أو تعجب منه : الدوام على ذلك والمضارع هو المشعر به • ولئلا يكون توبيخا لمن وقع منه الكفر ثم آمن • اذ لو جاء « كيف كفرتم بالله » لا ندرج فى ذلك من كفر ثم آمن كأكثر صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١١٧) •

أما فائدة ذكر قوله تعالى « وكنتم أمواتا ••• » فهى تأكيد للانكار والاستبعاد بما عدد فيها من الشئون العظيمة الداعية الى الايمان بالله الرادعة عن الكفر من حيث كونها عامة،ومن حيث دلالتها على قدرة تامة. أما كون الاماته فى قوله تعالى « ثم يميتكم » من دلائل القدرة فهذا ظاهر • وأما كونها من النعم ، فلكونها وسيلة الى الحياة الثانية التى هى الحيوان « وان الدار الآخرة لهى الحيوان » والنعمة العظمى والتراخى لمستفاد من كلمة « ثم » انما هو بالنسبة الى زمان الاحياء دون زمان الحياة • فان زمان الأماتة غير متراخ عنه (١١٨) •

ومنه قوله تعالى : « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ففى هذه الآية التفات من الغيبة فى قوله « يروا » والضمير عائد على من سبق من المكذبين المستهزئين فى قوله تعالى فى الآية السابقة « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون » (١١٩) الى الخطاب فى « لكم » وهو خطاب لهم • والمعنى : ان القرون المهلكة أعطوا من البسطة فى الدنيا والسعة فى الأموال ما لم يعط هؤلاء الذين حضوا على الاعتبار بالأمم السالفة وما جرى لهم •

---

(١١٧) البحر المحيط ١/١٢٩ ، ١٣٠

(١١٨) تفسير أبى السعود ١/٧٧

(١١٩) الأنعام : ٥ ، ٦ •

وعلى هذا : ففى قوله « ما لم نمكن لكم » التفات على المذهبين ٠ أما على مذهب الجمهور فلمخالفة ثانى التعبيرين لمقتضى ظاهر السياق ، ولمخالفته لمقتضى ظاهر المقام عند السكاكى ٠ اذ مقتضى الظاهر عند الطرفين أن يقال « ما لم نمكن لهم » فعدل عنه الى الخطاب فقيل « ما لم نمكن لكم » ٠

وفى هذا الالتفات **تعريض** بقلة تمكين هؤلاء ونقصهم عن أحوال من سبق ، ومع تمكين أولئك فى الأرض فقد حل بهم الهلاك ، فكيف لا يحل بكم على قلتكم رضيق خطتكم ، فالهلاك اليكم أسرع من الهلاك اليهم (١٢٠) ٠ اذ أنه سبحانه لما هددهم وأوعدهم على اعراضهم وتكذيبهم واستهزائهم فى قوله « فقد كذبوا ٠٠٠ » أتبع ذلك بما يجرى مجرى الموعظة والنصيحة وحض على الاعتبار بالقرون الماضية ٠

والاستفهام هنا للتوبيخ كما ترى الكناية اللطيفة فى قوله « وأرسلنا السماء عليهم مدرارا » ، « مدرارا » هنا للمبالغة فى اتصال المطر ودوامه وقت الحاجة لا أنها ترفع ليلا ونهارا فتفسد والظاهر (١٢١) أن الذنوب هنا هى كفرهم وتكذيبهم برسل الله وآياته ، والاهلاك هنا لا يراد به مجرد الافناء والاماته ، بل المراد : الاهلاك الناشىء عن الذنوب والأخذ به كقوله تعالى « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا » (١٢٢) لأن الاهلاك بمعنى الاماتة مشترك فيه الصالح والطالح ٠

---

(١٢٠) البحر المحيط ٤٠/٧٥

(١٢١) تفسير أبى السعود ٣/١١٤ ، البحر المحيط ٤/٧٧

(١٢٢) العنكبوت ٤٠ ـ ينظر تفسير أبى السعود ٣/١١٣ ، ١١٤

والفائدة من ختم الآية بقوله : « وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » اظهار القدرة التامة على افناء ناس وانشاء ناس ، فهو تعالى لايتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده ، وينشىء مكـانه آخر يعمر بلاده ، وفيه تعريض للمخاطبين باهدكهم اذا عصوا كما أهلك من قبلهم .

نوعان غريبان من الالتفات

الأول : بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه كقوله تعالى : « غير المغضوب عليهم » بعد « أنعمت » فان المعنى غير الذين غضب عليهم ولم يقل : غير الذين غضبت عليهم لأن الأول موضع التقرب الى الله بذكر النعمة ، فلما صار الى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغضب ، فأسند النعمة اليه لفظا وزوى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا (١) .

وتوقف فى هذا النوع بهاء الدين السبكى قائلا(٢) : وفى هذا النوع نظر لأننا اذا كنا توقفنا فى أن الانتقال الى الاسم الجامد التفات فهذا أولى لأن الفاعل فى المغضوب ــ مثلا ــ لم يذكر بالكلية ، فكيف يقال اننا انتقلنا اليه على سبيل الالتفات،وان صح ذلك فعلى رأى السكاكى يلزمه أن تكون جميع الأفعال المبنية للمفعول فيها التفات .

ويرى الشـــهاب الخفاجى أن هذ اما أن يكون واردا على رأى الأدباء والمتقدمين فى استعمال الالتفات بمعنى الافتنان فلا غبار عليه ، وأما على المتعارف : فلك أن تقول على طريقة السكاكى الذي لا يشترط تعدد التعبير ، بل مخالفة مقتضى الظاهر ، أن المخاطب اذا ترك خطابه ، وبنى ما أسند اليه للمفعول والمحذوف كالغائب ، فلا مانع من أن يسمى

---

(١) ينظر المثل السائر ٢٥٦ ، جوهر الكنز ١٢٠ ، الأقصى القريب فى علم البيان . التنوخى ٤٤ ط . السعادة /١٣٢٧ هـ ، البرهان فى علوم القرآن ٣٢٥/٣

(٢) شروح التلخيص (عرس الأفراح) ٤٧٨/١

التفات ، فكما يجرى فى الانتقال من مقدر الى محقق ، يجرى فى الانتقال من مقدر الى حقق ، يجرى فى عكسه وهو معنى بديع ينبغى التنبه له»(٣)

الثانى : التفات الضمائر : وقد أشار اليه ابن أبى الاصبع بقوله : وهو أن يقدم المتكلم فى كلامه مذكورين مرتين ، ثم يخبر عن الأول منهما ، وينصرف عن الاخبار عنه الى الاخبار عن الثانى ، ثم يعود فينصرف عن الاخبار الثانى الى الاخبار عن الأول كقوله تعالى ، « ان الانسان لربه لكنود ، وانه على ذلك لشهيد »(٤) • انصرف عن الاخبار عن الانسان الى الاخبار عن ربه تبارك وتعالى ، ثم قال منصرفا عن الاخبار عن الرب عز وجل « وانه لحب الخير لشديد » (٥) •

صور الالتفات عند كل من الجمهور ، الزمخشرى ، السكاكى

لقد اتضح لنا أن فى الالتفات مذهبين الأول مذهب الجمهور والثانى مذهب الزمخشرى وتبعه السكاكى فيه ، وتأكد لدينا أن صور الالتفات ست عند الجمهور كما سبق ، أما عند جار الله الزمخشرى فهى أربعة كما أشار الى ذلك السيد السند قدس سره مبينا أن الزمخشرى انما اقتصر على هذه الأربعة ، لأنها أكثر الأنواع وأشهرها (١) •

أما صور الالتفات عند السكاكى فهى سبعة ، اتفق مع الجمهور على ست منها وقد أشار الى ذلك بقوله : واعلم أن هذا النوع — أعنى نقل الكلام عن الحكاية الى الغيبة — لا يختص بالمسند اليه ولا بهذا القدر ، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها الى الآخر (٢) أما الصورة السابعة فهى أن يكون مقتضى الظاهر التعبير عن معنى بطريق

---

(٣) الحاشية ١٤٧/١ ، روح المعانى ١٣٢/١

(٤) ، (٥) العاديات ٦ ، ٧ ، ٨ • بديع القرآن • ابن أبى الاصبع ٤٥ تد حفنى شرف الطبعة الثانية ط نهضة مصر

(١) حاشية السيد على الكشاف ٦٣/١ ، ٦٤

(٢) مفتاح العلوم ٩٥

من الطرق الثلاثة (التكلم • الخطاب • الغيبة) فيعدل عنه الى الآخر ، ومثل لذلك بقول ربيعة بن مقروم :

بـــانت ســـعاد فأسى القلب معمودا
وأخلفتك ابنـــــة الحر المواعيـــدا

فالتفت من التكلم الى الخطاب حيث لم يقل « وأخلفتنى » •

وضع الظاهر موضع المضمر وعكسه بالنسبة للالتفات (١)

قلت ان الالتفات عند الســكاكى هو ما كان على خلاف الظــاهر مطلقا ، أما عند الجمهور فهو التعبير عن معنى باحدى الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها • وأن الالتفات عند الجمهور أخص منه عند السكاكى • فكل التفات عندهم التفات عند الســكاكى ولا ينعكس ذلك عندهم الا جزئيا •

ولما كان الالتفات يشترك مع وضع الظاهر موضع المضمر ووضع المضمر موضع المظهر فى أن كلا منها من اخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وهذا باعتبار الحكم العام الذى يشمل تلك الأنواع • أما بالنسبة للحكم الخاص بكل منهما أعنى الناحية التطبيقية ، فان لكل منها مواطن تخالف الآخر وعملنا فى هذا الفصل الاشارة الى المواطن التى يجتمع فيها مثلا • وضع الظاهر موضع المضمر مع الالتفات عند السكاكى ، وعند الجمهور والى ما ينفرد فيه كل منهما • وكذلك الحال بالنسبة لوضــع المضمر موضع المظهر مع الالتفات وفى الحقيقة أن دارس هذا الفن اذا تدبر مواطن الأشياء أمكنه معرفة ذلك بدون عناء •

---

(١) ينظر شروح التلخيص (عروس الأفراح) ١/٤٧٢ ، ٤٧٣

أولا : عند السكاكى : قد يجتمع وضع الظاهر موضع المضمر مع الالتفات كقوله تعالى : « ان الله عليم بما يصنعون ، والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا » (٢) ، أمير المؤمنين يأمرك بكذا : فالأصل وهو الذى ، أنا آمرك • وقد ينفرد الالتفات كقوله : «تطاول ليلك » وليس فيه وضع الظاهر موضع المضمر بل وضع مضمر موضع مضمر • وقد ينفرد وضع الظاهر عن الالتفات كقوله تعالى : « ان أبانا لفى ضلال مبين » (٣) أصله : « انه » لتقدمه فى قوله « أحب الى أبينا منا » •

وأما وضع المضمر موضع المظهر : فينفرد عن الالتفات فى نحو، نعم رجلا زيد ، ربه رجلا ، (٤) فذلك انما يكون من وضع المضمر موضع المظهر على رأى من يجعل المخصوص بالمدح مبتدأ محذوف الخبر ، فيقدر مثلا : زيد الممدوح ، أو خبرا محذوف المبتدأ فيقدر : هو زيد • أما من يجعل المخصوص مبتدأ ، والجملة قبله خبرا عنه فلا يكون من هذا الباب لأن الضمير حينئذ عائد الى المخصوص وهو — وان تأخر لفظا — متقدم رتبة • لأنه مبتدأ ، فالمقام حينئذ للاضمار لوجود شرطه وهو تقدم المرجع ، **وينفرد عنه الالتفات كثيرا** : نحو « اياك نعبد » ونحو « وبات وباتت له ليلة » **ويجتمعان** فى قول الخليفة : نعم الرجل أمير المؤمنين •

ثانيا : عند الجمهور: فقد يجتمع وضع الظاهر موضع المضمر مع الالتفات كقوله تعالى « انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر » (٥) اذ أن مقتضى الظاهر أن يقال : « فصل لنا وانحر » وقد ينفرد الالتفات وهو الغالب • كقوله تعالى : « اياك نعبد » فليس هنا وضع مظهر موضع

---

(٢) فاطر ٨ ، ٩ •

(٣) يوسف : ٨ •

(٤) شروح التلخيص (عروس الأفراح ، حاشية الدسوقى ، ١/٤٤٩ ، ٤٥٠ •

(٥) الكوثر : ١ ، ٢ •

مضمر ، وقد ينفرد وضع الظاهر : نحو « الحمد لله ، « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا » فليس هنا التفات عند الجمهور فى قوله « الحمدلله، والله الذى » .

أما وضع المضمر موضع المظهر : فانه لايجتمع مع الالتفات . اذ أن الالتفات لا بد فيه من ضمير سابق يلتفت عنه ومع ذلك فانه لا موقع للظاهر . ولكن ينفرد وضع المضمر موضع المظهر فى نحو : نعم رجلا زيد : وينفرد الالتفات فى غير ذلك : لأنه لا يوضع فيه مظهر بدل مضمر

هل يشترط أن يكون الالتفات فى جملتين

لقد صرح الزمخشرى فى أوائل تفسيره بأن الالتفات لا يكون الا فى جملتين (١) ، ويرى سعد الدين أن هذا خطأ . مستدلا بأن قوله تعالى « ليريه من آياتنا » (٢) فيمن قرأ بباء الغيبة (وهو الحسن) فيه التفات من التكلم الى الغيبة ، ثم من الغيبة الى التكلم مع أن قوله (من آياتنا) ليس بكلام آخر ، بل هو من متعلقات « ليريه » ومتمماته (٣) .

وأما بهاء الدين السبكى (٤) فيرى أن الظاهر أنهم انما يريدون بالجملتين الكلامين المستقلين . حتى يمتنع الالتفات بين الشرط

---

(١) الكشاف ١/٦٢ .
(٢) الاسراء : ١ .
(٣) المطول ١٣١ ، تقرير الانبابى ٢/٣٨٨ .
(٤) شروح التلخيص ١/٤٧٧ ، ٤٧٨ ، البرهان فى علوم القرآن ٣/٣٣١ ، ٣٣٢ ، الاتقان فى علوم القرآن ٣/٢٩٣ ، معترك الاقران ١/٣٨٣ .

وجوابه مثلا • وكلام البيانيين فى ايجاز الحذف (٥) وغيره ، يبين أنهم انما يريدون بالجملة الكلام المستقل بنفسه : فأما قول الشاعر :

أأنت الهـلالى الذى كنت مرة سـمعنا به والأرحبى المغلب

فليس منه • لأن الضميرين أحدهما على اللفظ والآخر على المعنى• وهو بذلك يرد على أبى حيان فى جعله ذلك من الالتفات قائلا : (٦)«وقد عقد أرباب علم البديع بابا للالتفات فى كلامهم ، ومن أجلهم كلاما فيه ابن الأثير الجزرى رحمه الله تعالى • وقـراءة من قرأ « اياك يعبـد » بالياء مبنيا للمفعول مشكلة • لأن « ايك » ضمير نصب ، ولا ناصب له، وتوجيهها أن فيه استعارة والتفاتا • فالاسـتعارة : احلال الضـمير المنصوب موضع الضمير المرفوع • فكأنه قال : أنت ، ثم الفت فأخبر عنه اخبار الغائب لمـا كان « اياك » هو الغائب من حيث المعنى فقال « يعبد » وغرابة هذا الالتفات كونه فى جملة واحدة وهو ينظـر الى قول الشاعر وذكر البيت السابق » •

يقول السـبكى ردا على ما ذهب اليه بو حيان (٧) « وشـيخنا أبو حيان توهم أن ذلك من الالتفات • لأنه لم يحقق معنى الالتفات ، وظن أنه أمر لفظى وكذلك ظن أن منـه من قرأ « اياك يعبد » باليـاء

---

(٥) شروح التلخيص ١٩٦/٣ •

(٥) شروح التلخيص ١٩٦/٣ •

(٦) البحر المحيط ١٢٤/١ •

(٧) شروح التلخيص ٤٧٧/١ •

بالياء المضمومة ، وليس منه ، والظاهر أنها مبنية على جواز « أنا قام » بالقياس على جواز « أنا رجل قام » ولا يصح هذا القياس ، لأن شرط ذلك أن يتقدم لما لفظه الغيبة من موصول أو موصوف •

ويبدو أن فى هذا الشرط نظرا فقد وقع فى القرآن مواضع الالتفات فيها فى كلام واحد ، وان لم يكن بين جزأى الجملة كقوله تعالى : « والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم » (٨) ففيه التفات من الغيبة فى قوله تعالى « الله » الى التكلم فى « رحمتى » أما « يئسوا » فقد يكون المراد : ييأسون يوم القيامة ، وعبر بالماضى دلالة على تحققه ، أو يكون المراد : يئسوا منها فى الدنيا لانكارهم البعث والجزاء ، وفى تكرير اسم الاشارة ، وتكرير الاسناد ، وتنكير العذاب ، ووصفه بالأليم • من الدلالة على كمال فظاعة حالهم ما لا يخفى : أى أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه وباليأس من رحمة ، الممتازون بذلك عن سائر الكفرة لهم بسبب تلك الأوصاف القبيحة عذاب لا يقادر قدره فى الشدة والايلام وأضاف الرحمة الى نفسه ، ولم يضف العذاب اليها لسبق رحمته ، واعلاما لعباده بعمومها لهم •

وقوله تعالى : وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون » (٩) فالالتفات هنا من الغيبة الى التكلم : فى « آياتنا » والغرض منه تربية المهابة وادخال الروعة •

---

(٨) العنكبوت : ٢٣ • تفسير أبى السعود ٧/٣٦ ، حاشية الجمل ٣/٣٧٢ •

(٩) القصص : ٥٩ •

هذا : وانك لترى هذه الآية ناطقة برحمة الله بعباده وأنه ليس بظلام للعبيد : اذ أنه لا يعذب أحدا انحرف عن الحق الا بعد انذاره عن طريق الرسل وقد بين ذلك جل شأنه فى هذه الآية بأسلوبى قصر ونحن نعلم أن القصر ايجاز ، وتوكيد على توكيد ، الأول : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا » أى ما صح وما استقام بل استحال فى سننه المبنية على الحكم البالغة ، أو ما كان فى حكمه الماضى وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الانذار ، بل كانت سنته وعز وجل أن لا يهلكها حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا الناطقة بالحق ، ويدعوهم اليه بالترغيب والترهيب » الثانى : « وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون » استثناء مفرغ من أعم الأحوال : أى وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد مابعثنا فى أمها رسولا يدعوهم الى الحق ، ويرشدهم اليه فى حال من الأحوال الا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا ، والكفر بآياتنا فالبعث غاية لعدم صحة الاهلاك بموجب السنة الالهية ، ولعدم وقوعه حتى يلزم الاهلاك عقيب البعث (١٠) .

ومنه قوله تعالى : « وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » (١١) بعد قوله : « ياأيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن .. » والتقدير ان وهبت امرأة مؤمنة نفسها للنبى أحللناها لك . فهنا التفاتان أحدهما الرجوع من الخطاب فى قوله : « أحللنا لك » الى الغيبة فى قوله « للنبى » والثانى من الغيبة فى قوله « للنبى » السابق الى الخطاب فى قوله

---

(١٠) روح المعانى ٢٠//٩٨ .
(١١) الأحزاب : ٥٠ .

« خالصة لك » ونكتة الالتفات هنا : (١٢) أنه عدل عن الخطاب الى الغيبة فى « النبى » « ان أراد النبى » ثم رجع الى الخطاب فى قوله « خالصة لك » للايذان بأنه مما اختص به ، وأوثر ، ومجيئه على لفظ النبى دلالة على الاختصاص تكرمة له ، لأجل النبوة ، وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته • وجملتا الشرط والجزاء كلام واحد •

وقد وقع الالتفات بين الشرط والجواب فى قول كثير عزة .

أسيىء بنا أو أحسنى لا ملومة
لدينا ولا مقلية ان تقلت

قال الجوهرى : خاطبها ثم غايب • فقوله : (تقلت) فعل ماض مسند الى ضمير المؤنث المستتر • وأصله (تقليت) فالتفت من الخطاب الى الغيبة •

واعترض السبكى على قول الجوهرى السابق قائلا : لانسلم أن هذا التفات بل روعى فيه لفظ (مقلية) فجاء على الغيبة كقولك : أنت رجل قام ، وأنت مقلية تقلت • وقول الجوهرى انه خاطبها ثم غايب • يمكن حمله على ما قلناه ولئن سلمنا أنه التفات فنقول : ليس قوله لاملومة جواب الشرط بل دليله على مذهب البصريين ، ولا يمتنع اختلاف الجواب ودليله فى الخطاب والغيبة ولو امتنع ذلك ، أو قلنا انه جواب على مذهب الكوفيين ، فالجواب أن الالتفات وقع بقوله لا ملومة والتقدير : لا هى ملومة •

ومنه قوله تعالى : « ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى أم هم ضلوا السبيل » (١٤) على قراءة «نحشرهم »

---

(١٢) البحر المحيط ٢٤٢/٧ ، الكشاف ٢٦٨/٣ •
(١٣) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ٤٧٧/١ •
(١٤) الفرقان ١٧ • تفسير أبى السعود ٢٠٨/٦ •

بالنون يكون الالتفات من التكلم الى الغيبة • وفائدته التقريع والتبكيت للمعبودين والاشارة الى أن الحشر أمر عظيم مناسب لنون العظمة ، واضافة عبادى للترحم، أو لتعظيم جرمهم لعبادة غير خالقهم (١٥) •

والغرض من قوله تعالى «أأنتم أضللتم عبادى» اثبات الحجة على العابدين ، والسؤال هنا لا يتطلب جوابا لأنه تقريع وتبكيت • ولكن قد يقال • اذا كان المولى عالما فى الأزل بحال المسؤل • فما فائدة السؤال ؟

وتقرير الجواب (١٦) : أن فائدته تقريع العبدة والزامهم • كما يقال لعيسى عليه الصلاة والسلام : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله » (١٧) لأنهم اذا سئلوا بذلك وأجابوا بما هو الحق الواقع، تزداد حسرة العبد ، ويبكتون بتكذيب المعبودين اياهم وتبرئهم منهم • وتقديم الضميرين على الفعلين • لأن المراد بالسؤال التقريعى هو المتصدى للفعل لا نفس الفعل •

ومنه قوله تعالى : « انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله » (١٨) وفيه التفاتان : أحدهما « أرسلنا » ، ولفظ الجلالة ، والثانى : بين الكاف فى « أرسلناك » و « رسوله » وكل منهما فى كلام واحد (١٩) • ولعل سر الالتفات هنا هو الامتنان منه تعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام ، حيث شرفه بالرسالة ، وبعثه الى الكافة شاهدا على أعمال أمته صلى الله عليه وسلم •

---

(١٥) حاشية الشهاب ٦/٤١٢ •

(١٦) حاشية الجمل ٣/٢٤٩ نقلا عن زاده •

(١٧) المائدة : ١١٦ •

(١٨) الفتح : ٨ . ٩ •

(١٩) البرهان ٣/٣٣٢ •

ومنه قوله تعالى : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله » (٢٠) والالتفات هنا من التكلم فى قوله « سنلقى » الى الغيبة فى قوله « بالله » وفائدته الاشعار بالعظمة المنافية للشرك وادخال الروعة فى قلوب الأعداء .

وتدبر هذا التصوير الماتع فى قوله «سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » اذ أن الالقاء حقيقة فى الأجرام واستعير هنا للجعل . وتأمله ، وضعه نصب عينيك وانفذ اليه بنور البصيرة ، واشحذ عقلك وتدبر ما فيه . تجد أن الذى يتوعد بالقاء الرعب فى القلوب هو الذى صنع هذه القلوب ، ويعلم دقائقها والموضع الذى يفقد الانسان توازنه اذا القى فيه الرعب ، وان القاء الرعب من الخالق فى قلب الكافر صدمة وأى صدمة . صدمة تفقده وعيه وآدميته . فتجعله مروعا خائفا لا يقدر على تنفيذ ما كان يتوعد به بل يلحقه الخزى والعار .وصدق قوله تعالى : «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (٢١) ولقد حضرنى وأنا أكتب هذا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » (٢٢) فقلت فى نفسى « حرب من الله ورسوله » من يحارب من ؟ ربنا اننا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (٢٣) .

وأما قوله تعالى : « فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » (٢٤) فقد جعله الزمخشرى من قبيل التغليب أو الالتفات . يقول : فان قلت . أما كان من حق الضمير فى الجزاء أن يكون على لفظ

---

(٢٠) آل عمران : ١٥١ .

(٢١) الملك : ١٤ .

(٢٢) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢٣) الأعراف : ٢٣ .

(٢٤) الاسراء : ٦٣ الكشاف ٢/٤٥٦ ، البحر المحيط ٦/٥٨ .

الغيبة ليرجع الى « من تبعك » ؟ قلت : بلى • ولكن التقدير • فان جهنم جزاؤهم وجزاؤك ، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل : جزاؤكم ، ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات •

ولكن قول الزمخشرى « ويجوز أن يكون ••• » قد قوبل بالرفض من بهاء الدين السبكى اذ يقول : «وهو ينافى ما تقدم عنه وعن غيره » (٢٥) كما أن أبا السعود قد اكتفى بما ذهب اليه الزمخشرى أولا فقال: فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية (٢٦) كما تعقبه ابن هشام فى تذكرته قائلا : (٢٧) وعندى أنه فاسد لخلو الجواب أو الخبر عن الرابط ، لأن الضمير ليس عائدا على لفظه انما هو مفسر بالحضور • وتبعه بعض أرباب الحواشى • وهذا بناء على أن ضمير الخطاب لا يكون رابطا ، فلا يصح : زيد يقوم أبوك ولو أول بالغائب فى الالتفات ، ومن لم يشعر بوجهه قال : المعنى فان جهنم جزاؤكم يا أتباعه حتى يحصل الربط ، وقد أجيب بأنه مؤول بتقدير فيقال لهم : ان جهنم جزاؤكم ، ورد بأنه يخرجه عن الالتفات ، ولذا قال الخفاجى : ان ضمير الخطاب ان سلم أنه لا يكون عائدا ، لا نسلم أنه اذا أريد به الغائب التفاتا لايربط به ، لأنه ليس بأبعد من الربط من الاسم الظاهر •

وقوله تعالى : « واتقوا يوما يرجعون فيه الى الله » (٢٨) على قراءة الياء ، قال الزمخشرى «ترجعون » قرىء على البناء للفاعل ، والمفعول ، وقرىء « يرجعون » بالياء على طريقة الالتفات ، ولكن البناء للمفعول أدخل فى التهويل (٢٩) وتنكير اليوم : للتفخيم والتهويل ، وتعليق الاتقاء

---

(٢٥) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ٤٧٨/١ •
(٢٦) تفسير ابى السعود ١٨٣/٥ •
(٢٧) ينظر حاشية الشهاب ٤٦/٦ •
(٢٨) البقرة : ٢٨١ الكشاف ٤٠٢/١ . شروح التلخيص (عروس الأفراح) ٤٧٨/١ •
(٢٩) تفسير أبى السعود ٢٦٨/١ •

به للمبالغة فى التحذير عما فيه من الشدائد والأهوال ، ويرى السبكى أن الزمخشرى كان مستغنيا عن ادعاء الالتفات بأن يعيد الضمير فى « يرجعون » الى جنس الناس فلا يكون التفاتا ، ومنه ما قاله التوخى فى الأقصى القريب (٣٠) أن الواو فى قوله تعالى : « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا » (٣١) واو الحال ، يلزمه وقوع الالتفات فى كلام واحد ، ومنها « ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون » (٣٢) لأن فطرنى وترجعون كلام واحد ، فان كان القائل ان الالتفات لا يكون فى جملة واحدة يعنى به جملة طرفاها مفردان ، ويجوز وقوعه بين جملتين لهما محل واحد معمولتين لشىء واحد ، أو بين جملة ومتعلق بهـا ، لم ينتقض كلامه بشىء مما سبق .

أغراض الالتفات البلاغية

يرى النقاد والبلاغيون أن الالتفات يأتى لدفع السآمة من الاستمرار على ضمير متكلم ، أو ضمير مخاطب ، فينتقلون من الخطاب الى الغيبة الى غير ذلك لأن الكلام على ضمير واحد لا يستطاب يقول حازم القرطاجنى : وهم يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب ، فينتقلون من الخطاب الى الغيبة ، وكذلك أيضا يتلاعب المتكلم بضميره ، فتارة يجعله ياء على جهة الاخبار عن نفسه ، وتارة يجعله كافا ، أو تاء ، فيجعل نفسه مخاطبا وتارة يجعله هاء فيقيم نفسه مقام الغائب ، فلذلك كان الكلام المتوالى فيه ضمير مخاطب لا يستطاب ، وانما يحسن الانتقال من بعضها الى بعض (١) .

---

(٣٠) المائدة : ١٢ .

(٣١) ص ٤٥ مطبعة السعادة ١٣٢٧ هـ .

(٣٢) يس : ٢٤ .

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ٣٤٨ ت محمد الحبيب ابن الخوجة ط . بيروت الطبعة الثانية ١٩٨١ .

وكان جار الله الزمخشرى ــ رحمه الله ــ أول من فتق الأكمام ،ونبه الأذهان بأن للالتفات فائدة عامة ، وفوائد أخرى خصة تختص بكل موقع من مواقعه فنراه يقول فى فائدة الالتفات العامة : ان الكلام اذا انتقل من أسلوب الى أسلوب ، كان ذلك احسن تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه من اجرائه على أسلوب واحد (٢) وفى كلام الزمخشرى ما يفيد أن الالتفات قد عرف واشتهر عند العرب بهذا الاسم ، وأنواعه كثيرة ، وأمثلة غير محصورة وأن ذلك من عادة العرب التى مرنوا عليها فى أساليبهم ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد أشار الى الفائدة العامة للالتفات من جهة المتكلم وهى التصرف والافتنان فى وجوه الكلام واظهار القدرة عليها ، والتمكن فيها ، كما أن فيه تطرية للسامع وايقاظا للاصغاء اليه من اجرائه على أسلوب واحد .

ولكن اذا كان الانتقال من أسلوب الى أسلوب آخر تطرية واستدرارا للسامع ، وتجديدا لنشاطه ، وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه كما قيل .

لا يصلح النفس ان كانت مصرفة
الا التنقل من حال الى حال

فان هناك أمورا يجب التنبيه اليها :

الأول : أن الالتفات اذا أتى دون حاجة ماسة ، وضرورة قوية ، فانه لا يكون حسنا بل يصير آنذاك ضربا من التكلف ، واحتمال التعب بلا طائل . ولذلك عيب أبى الطيب المتنبى الالتفات فى قوله : (٣)

وانى لمن قوم كأن نفوسنا
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

---

(٢) الكشاف ١/٦٤ .
(٣) التبيان . شرح ديوان المتنبى للعكبرى٢/٣٤٩ ، ٢٨٣ المطبعة العامرة : ١٣٠٨ هـ .

لأنه كان يجب أن يقول « كأن نفوسهم » ليرجع الضمير الى القوم فيتم به الكلام ، وهذا من شنيع ما وجد فى شعره ، ومثله قوله :

قوم تفرست المنايا فيكم
فرأت لكم فى الحرب صبر كرام

لأنه كان يجب أن يقول « تفرست المنايا فيهم » ورغم أن العكبرى دافع عنه فى هذين البيتين قائلا فى البيت الأول : ولكنه قال « نفوسنا » لأنه أهم القوم الذين عناهم وهو أمدح ، وفى الثانى : وكان الوجه أن يقل فيهم ، ولكنه حمله على المعنى لأنه اذا خاطبهم بالكف كان أمدح .

ولكن القاضى الجرجانى لا يرتضى ذلك فيصرح (٤) بأن هذه القضية اذا استمرت على ظاهرها تداخلت الضمائر ، ولم ينفصل غائب عن حاضر ، ولم يتميز مخاطب . ثم يفصل القول تفصيلا فيذكر أن للالتفات مواضع تختص بالجواز ، وأخرى تبعد عنه ، وبينهما أمور تدق ، وأن أبا الطيب عندى غير معذور بتركه الأمر القوى الصحيح الى المشكل الضعيف لغير ضرورة داعية ولا حاجة ماسة ، ان موقع اللفظين من الوزن واحد . ولو قال « نفوسهم » فى قوله « كأن نفوسنا » لأزال الشبهة ، ودفع القالة ، وأسقط عنه الشغب ، وعناء التعب .

الثانى : اذا كان فى نقل الكلام تجديد النشاط ، وكثرة الايقاظ ، لما علم من ولوع النفس بكل جديد ، وتلذذها بكل طرى ، وهذا الوجه عام فى كل الالتفات ، فانه ينبغى أن يعلم أن هذا ظاهر على رأى الجمهور ،(٥) أما وجوده على مذهب السكاكى فيما لا يتقدم فيه التعبير ضعيف لأن التعبير الأول يرد غالبا قبل ارتقاب ما يصلح للمقام فلا يتحقق بتجديد ما لا يرتقب .

---

(٤) الوساطة بين المتنبى وخصومه . القاضى الجرجانى ٤٤٦ ـ ٤٤٩ ت محمد ابو الفضل ، على البجاوى طبع عيسى الحلبى .

(٥) شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١/٤٧٣ ، ٤٧٤ .

الثالث : أن هذا الوجه فى توجيه الكلام لمن يصلح فى حقه الايقاظ والنشاط واضح ، وأما من لا يصح فى حقه ما ذكر كما فى حق البارى تعالى ، فالالتفات بالنسبة اليه للازم هذا الوجه ، كاظهار الرغبة لقبول الكلام ، أو لوجه آخر • كما أن ما ذهب اليه السكاكى من عدم اشتراط تقدم تعبير آخر يتحقق فيه معنى الالتفات من جهة المتكلم ، لأنه التفت من مقتضى المقام الى غيره •

* * *

أما فوائده الخاصة : فهى كثرة كاثرة ، تختلف باختلاف محاله ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم • وقد أشار جار الله الزمخشرى الى كثير منها ، اذ يقول فى معرض الالتفات من الغيبة الى الخطاب فى سورة الفاتحة (٦) ، وقد تختص مواقعه بفوائد ، ومما اختص به هذا الموضع ، أنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، وأجرى عليه تلك الصفات العظام ، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن ، حقيق بالثناء ، وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : اياك يا من هذه صفاته تخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة لذلك التميز الذى لاتحق العبادة الا به •

ويكرر الزمخشرى حديثه عن التطريبة لنشاط السامع ، وأثر الالتفات فى هز الطبع ، وتحريك النفس ، وأنه لذلك فن جزل فتراه يقول فى قوله تعالى : « ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٧) ، لما عدد الله فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين وذكر صفاتهم وأحوالهم ، ومصارف أمورهم ، وما اختصت

---

(٦) الكشاف ١/٦٤ ، ٦٥ •

(٧) البقرة : ٢١ الكشاف ١/٢٢٣ ، ٢٢٤ •

به كل مما يسعدها ويشقيها ، ويحظيها عند الله ويرديها ، أقبل عليهم بالخطاب ، وهو من الالتفات المذكور عند قوله « اياك نعبد » وهو فن من الكلام جزل فيه هز وتحريك من السامع • كما أنك اذا قلت لصاحبك حاكيا عن ثالث لكما : ان فلانا من قصته كيت وكيت ، فقصصت عليه ما فرط منه ، ثم عدلت بخطابك الى الثالث فقلت : يا فلان : من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة فى مجارى أمورك ، وتستوى على جادة السداد فى مصادرك ومواردك • نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيه واستدعيت اصغاءه الى ارشادك زيادة استدعاء ، وأوجدته بالانتقال من الغيبة الى المواجهة هازا من طبعه ما لا يجده اذا استمررت على لفظ الغيبة ، وهكذا الافتنان فى الحديث والخروج فيه من صنف الى صنف يستفتح الآذان للاستماع ، ويستهش الأنفس للقبول •

ففى قول الزمخشرى : « نبهته بالتفاتك •••• من الغيبة » اشارة الى فائدة خصوصية الانتقال من الغيبة الى الخطاب فى هذا المقام ، وفى قوله : «وهكذا الافتنان ••• للقبول » اشارة الى فائدة الالتفات مطلقا •

أما اذا كان الالتفات للغيبة فان الزمخشرى يشير الى أن الغرض منه قد يكون التعجب والمبالغة فى التحقير من المخاطبين والانكار والتنديد بهم واستحضار صورتهم ، تراه يقول فى قوله تعالى : « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » (٨) الضمير للناس ، وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم ، لأنه لاضالة أضل من المقلد ، كأنه يقول للعقلاء : انظروا الى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون •

بينما يقول أبو حيان : (٩) وحكمة الالتفات أنهم أبرزوا فى صورة

---

(٨) البقرة /١٦٨ ـ ١٧٠ •

(٩) البحر المحيط ١/٤٨٠ ، روح المعانى ٢/٥٦ •

الغائب الذى يتعجب من فعله حيث دعى الى اتباع شريعة الله التى هى الهدى والنور فأجاب باتباع شريعة أبيه • وكأنه يقال « هل رأيتم أسخف رأيا وأعمى بصيرة ممن ادعى الى اتباع القرآن المنزل من عند الله ، فرد ذلك وأضرب عنه ، وأثبت أنه يتبع ما وجد عليه أباه » •

وأيا ما كان الذى ذهب اليه الزمخشرى أو أبو حيان فالهدف واحد كما يبدو ، ويقول فى قوله تعالى : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق » (١٠) فان قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة ؟ قلت : المبالغة : كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الانكار والتقبيح •

ويرى الامام فخر الدين الرازى أن سر الالتفات فى الآية هو المقت والتبعيد والطرد • فيقول : « الانتقال من مقام الخطاب الى مقام الغيبة فى هذه الآية : دليل المقت والتبعيد والطرد ، وهو اللائق بحال هؤلاء • لأن من (اسم موصول) صفته ان يقابل احسان الله تعالى اليه بالكفران كان اللائق به ما ذكرناه » (١١) •

أما أبو حيان فيرى أن الأظهر — والله أعلم — أن حكمة الالتفات هنا (١٢) ، هى أن قوله « هو الذى يسيركم فى البر والبحر » خطاب فيه امتنان واظهار نعمة للمخاطبين والمسيرون فى البحر مؤمنون وكفار ، والخطاب شامل ، فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر ، ولعل الصالح يتذكر هذه النعمة فيرجع ، فلما ذكرت حالة آل الأمر فى

---

(١٠) يونس ٢٢، ٢٣ • الكشاف ٢/٢٣١ ، البرهان ٣/١٣٩ •

(١١) التفسير الكبير المعروف بتفسير الفخر الرازى ١٧/٦٨ ، ٦٩ ، ٣/١٩٠ •

(١٢) البحر المحيط ٥/١٣٨ ، ١٣٩ •

آخرها الى أن الملتبس بها هو بـــاغ فى الأرض بغير الحق ، عدل عن الخطاب الى الغيبة ، حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التى آخرها البغى ، وهذا اذا كان الضمير فى « بهم » راجعان الى من فى الفلك .

أما اذا كان الضمير الغائب عائدا الى مقدر هو « بعضكم » والمعنى : حتى اذا كان بعضكم فيها فلا التفات ، يقول أبو حيان : قال ابن عطية « بهم » خروج من الحضور الى الغيبة . وحسن ذلك لأن قوله « كنتم فى الفلك » هو والمعنى المعقول : حتى اذا حصل بعضكم فى السفن ، ثم يعقب عليه أبو حيان قائلا : فكأنه قدر مفردا غائبا يعاد الضمير عليه ، فيصير كقوله تعالى : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج » (١٣) أى أو كذى ظلمات فعاد الضمير غائبا على اسم غائب ، فلا يكون ذلك من باب الالتفات (١٤) .

وفى العدول من الغيبة الى الخطـــاب للمواجهة باللوم والغضـــب والانكار يقول فى قوله تعـــالى « واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون » (١٥) وأما من قرأ « ألا تتقون » على الخطاب، فعلى طريقة الالتفات اليهم ، وجبههم، وضرب وجوههم بالانكار والغضب عليهم ، كما ترى من يشكو من ركب جناية الى بعض أخصائه والجانى حاضر ، فاذا اندفع فى الشكاية ، وحر مزاجه ، وحمى غضبه ، قطع مبالغة صاحبه ، وأقبل على الجـــانى يوبخه ويعنف به ويقول له : ألا تتقى الله ألم تستح من الناس ؟ ثم يقول فان قلت : فما فـــائدة هذا الالتفات ؟ والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام فى وقت المناجاة، والتفت اليهم غيب لا يشعرون ؟ قلت : اجراء ذلك فى تكلم المرسل اليهم

---

(١٣) النور : ٤٠

(١٤) البحـر المحيط ١٣٩/٥ . تفسير أبى السـعود ١٣٤/٤ . ١٣٥ ، روح المانى ٩٦/١١ .

(١٥) الشعراء : ١٠ ، ١١ . الكشاف ١٠٦/٣ لبحر المحيط ٧/٧

فى معنى اجرائه بحضرتهم ، والقائه الى ما معهم لأنه مبلغة ومنهيه بين الناس ، وله فيه لطف وحث على التقوى ، وكم من آية نزلت فى شأن الكافرين ، وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرا واعتبارا بموردها .

وقد يعدل المتكلم الى الاسم الظاهر : ليتمكن من اجراء صفات على هذا الاسم ، وفيه تفخيم للملتفت اليه كقوله تعالى : «قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » (١٦) فالالتفت هنا المبالغة فى ايجاب الامتثال ووصف الرسول بقوله « النبى الأمى » لمدحه وزيادة تقرير أمره ، وتحقيق أنه المكتوب فى الكتابين ، وكذلك فيه دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها .

وكقوله تعالى : « ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » (١٧) لم يقل : واستغفرت ، تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث عدل عن خطابه الى ما هو من عظيم صفاته ، على طريقة حكم الأمير بكذا ، مكن حكمت ، وتعظيم الاستغفار من جهة اسناده الى لفظ ينبىء عن علو مرتبته من جهة التعلق بالرسالة .

وقد يكون الغرض من الالتفات : التتميم لمعنى مقصود للمتكلم ، فيأتى به محافظة على تتميم ما قصد اليه من المعنى المطلوب له كقوله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم » (١٨) أصل الكلام ، انا كنا مرسلين رحمة منا ولكنه وضع الظاهر موضع المضمر للانذار بأن الربوبية تقتضى

---

(١٦) الأعراف ١٥٨ . المثل لسائر ٢٦٠ ، لاتقان فى علوم القرآن ١٩٠/٣ .

(١٧) النساء : ٦٤ . البحر المحيط ٢٨٣/٣ ، حاشية الشهاب ١٥١/٣ .

(١٨) الدخان : ٤ ـ ٦ . البرهان ٣٢٨/٣ ، ٣٢٩ ، الكشاف ٥٠١/٣ ، البحر المحيط ٣٣/٨ .

الرحمة للمربوبين للقدرة عليهم أو لتخصيص النبى صلى الله عليه وسلم بالذكر ، أو الاشارة الى أن الكتـــاب انما هو اليه دون غيره ، ثم التفت باعادة الضمير الى الرب الموضوع موضع المضمر للمعنى المقصود من تتميم المعنى .

ويرى الألوسى (١٩) : أنه جيء هنا بلفظ الرب مضافا الى ضميره صلى الله عليه وسلم على وجه تخصيص الخطاب به صلى الله عليه وسلم تشريفا له عليه الصلاة والسلام ، ودلالة على أن كونه سبحانه وتعالى ربك وأنت مبعوث رحمة للعالمين ، مما يقضى أن يرسل الرحمة .

وقد يكون الغرض منه قصد الدلالة على الاختصاص كقوله تعالى « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » (٢٠) فانه لما كان سوق السحاب الى البلد الميت واحياء الأرض بعد موتها بالمطر دالا على القدرة الباهرة التى لا يقدر عليهـــا غيره ، عدل عن لفظ الغيبـــة الى المتكلم لأنه أدخل فى الاختصاص وأدل عليه : « سقنا ، أحيينا » .

وايراد الفعلين « سقنا ، أحيينا » بصيغة الماضى للدلالة على التحقيق واسنادهما الى نون العظمة المنبىء عن الاختصاص به تعالى ، لما فيهما من مزيد الصنع (٢١) ، ولتكميل المماثلة بين احياء الأرض ، وبين المبعث الذى شبه به بقوله تعالى « كذلك النشور » فى كمال الاختصاص بالقدرة الربانية وأسند « أرسل » الى الغائب وساق « أحيا » الى المتكلم ، لأنه فى الأول عرف سبحانه نفسه بفعل من الأفعال وهو الارسال ، ثم لما عرف قال تعالى : أنا الذى عرفتنى سقت السحاب ، وأحييت الأرض ، ففى الأول كان تعريفا بالفعل ، وفى الثانى كان تذكيرا بالنعمة ، فان كمـــال نعمتى الرياح والسحب بالسوق والاحياء .

---

(١٩) روح المعانى ١١٥/٢٥ .
(٢٠) فاطر : ٩ . البرهان ٣٢٩/٣ . الكشاف ٣٠٢/٣
(٢١) روح المعانى ١٧٢/٢٢ .

وقال سبحانه : « فأحيينا به الأرض » دون « فاحييناه » أى البلد الميت به تعليقا للاحياء بالجنس المعلوم عند كل أحد وهو الأرض ، ولأن ذلك أوفق بأمر البعث ، وقال تعالى : « بعد موتها » مع أن الاحياء مؤذن بذلك ، لما فيه من الاشارة الى أن الموت للارض الذى تعلق بها الاحياء معلوم لهم وبذلك يقوى أمر التشبيه •

ثم ترى ذلك التشبيه الماتع فى قوله تعالى « كذلك النشور » أى مثل ذلك الاحياء الذى تشاهدونه احياء الأموات يوم القيامة فى صحة المقدورية ، وسهولة التأتى من غير تفاوت بينهما أصلا سوى الالف فى الأول دون الثانى •

وذكر الامام الفخر الرازى — عليه رضوان الله — أن وجه التشبيه بقوله « كذلك النشور » فيه وجوه (٢٢) ، أحدها : أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة • ثانيها : كما أن الريح يجمع القطع السحابيه كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء، تالثها : كما انا نسوق الريح والسحاب الى البلد الميت ، يسوق عز وجل الروح والحياة الى البدن •

ومنها : قصد التوبيخ : كقوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا » (٢٣) ففى قوله تعالى « لقد جئتم شيئا ادا » رد لمقالتهم الباطلة ، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات من الغيبة فى « قالوا » الى الخطاب فى «جئتم » المنبىء عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح ، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة ، وعدل عن الغيبة الى الخطاب لأن توبيخ الحاضر أبلغ فى الاهانة له والضمير فى قوله « قالوا » عائد على بعض اليهود حيث قالوا : عزير

---

(٢٢) التفسير الكبير ٧/٢٦ •

(٢٣) مريم : ٨٨ ، ٨٩ • الألوسى ١٣٩/١٦ ، الكشاف ٢٥٦/٢ ، البرهان ٣٣٠/٣ •

ابن الله (٢٤) وبعض النصارى حيث قالوا « المسيح بن الله » (٢٥) وبعض مشركى العرب حيث قالوا « الملائكة بنات الله » (٢٦) .

هذا : وقد يكون التقدير : قل لهم يا محمد « لقد جئتم » فلا التفات » (٢٧) .

وانك لترى : أنه لعظم هذا الأمر ، وما فيه من جرأة على الله تعالى يقول « تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا » (٢٨) أى أن من هول تلك الشنعاء وعظمتها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تطق بها هاتيك الأجرام العظام ، وتفتتت من شدتها ، أو أن فظاعتها فى استجلاب الغضب ، واستيجاب السخط بحيث لولا حلمه تعالى لحزب العالم ، وبددت قوائمه ، غضبا على من تفوه بها » .

وفى هذا يقول الامام الفخر الرازى (٢٩) فان قيل : من أين يؤثر القول باثبات الولد لله تعالى فى انفطار السموات والأرض وخرور الجبال ؟ قلنا فيه وجوه : أحدها : ان الله سبحانه وتعالى يقول : أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها لولا حلمى ، وانى لأعجل بالعقوبة كما قال « ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا » (٣٠) .

(٢٤،٢٥) التوبة : ٣٠ .

(٢٦) اشارة الى قوله تعالى «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا » الزخرف : ١٩ .

(٢٧) البحر المحيط ٦/٢١٨ .

(٢٨) مريم : ٩٠ تفسير ابى السعود ٥/٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٢٩) التفسير الكبير ٢١/٢٥٤ .

(٣٠) فاطر : ٤١ .

ثانيها : أن يكون استعظاما للكلمة وتهويلا من فظاعتها ، وتصويرا لأثرها فى الدين ، وهـدمها لأركانه وقواعده • ثالثها : أن السموات والأرض والجبال تكاد أن تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول • وهذا تأويل مسلم » •

ولكن (٣١) كيف يصح أن يعظم ذلك هـذا التعظيم ثم يأمرنا سبحانه أن نقرهم عليه بأخذ الجزية ؟ فى الحقيقة أن الله تعالى ماعظم الا العظيم من القول والكفر • وقد كان يجوز أن لا يخلق من يكفر لكنه تفضل وكلف لكى يؤمنوا ، وكذلك لا يمنع أن يأمرنا بأن نقرهم على وجه أقرب الى أن يؤمنوا عند المخالطة وسماع التوحيد ، وعندما ينالهم من الذل بدفع الجزية ، وبين أن كل من فى السموات والأرض خلقه ، وهو قادر على اضعافه ، فلا يجوز أن يتخـذ منهم ولدا مع قـدرته على أن يكونوا له عبيدا » •

ومنه قوله تعالى : ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون » (٣٢) فالخطاب هنا للناس كافة والأصل : وتقطعتم • الا أن الكلام صرف الى الغيبة على طريق الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ما أفسـده الى آخرين ، ويقبح عنـدهم فعلهم ويقول لهم : « ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله ، وجعلوا أمر دينهم قطعا كما يتوزع الجماعة الشىء لهذا نصيب ، ولهذا نصيب تمثيلا لاختلافهم فى الدين » •

ولهذا ترى أن الغرض من الجملة الخبرية « ان هذه أمتكم ••• » الأمر بالمحافظة على تلك الملة ومراعاة حقوقها ، وفى العـدول الى لفظ

---

(٣١) تنزيه القـرآن عن المطاعن • القاضى عبـد الجبـار ٢٥١ بتصرف ط بيروت •

(٣٢) الأنبياء : ٩٢ ، ٩٣ • التفسـير الكبير ٢١٩/٢٢ ، البرهان ٣٣٠/٣ ، الكشاف ٥٨٢/٢ البحر المحيط ٣٣٧/٦ •

الرب ترجيح جانب الرحمة ، وأنه تعالى يدعوهم الى عبادته بلسان الترغيب والبسط ، ثم ترى ذلك التوعد فى قوله « كل الينا راجعون » اذ أنه وحده هو المحاسب ، وهو المجازى لهذه الفرق المختلفة (٣٣) .

أما الكرمانى (٣٤) فيرى أن الخطاب فى هذه السورة للكفار ، فأمرهم بالعبادة التى هى التوحيد ، ثم قال « وتقطعوا » بالواو : لأن التقطع قد كان منهم قبل هذا القول لهم ، ومن جملة خطاب المؤمنين. فمعناه : داوموا على الطاعة .

أما فى سورة « المؤمنون » وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون » (٣٥) فالخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بدليل قوله « ياأيها الرسل كلوا من الطيبات » (٣٦) والأنبياء والمؤمنون مأمورون بالتقوى ثم قال « فتقطعوا » أى ظهر منهم التقطع بعد هذا القول . والمراد أممهم » .

ومنها : قصد الاهتمام : كقوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » (٣٧) فعدل عن الغيبة فى « قضاهن » ، « أوحى » الى التكلم فى « وزينا السماء الدنيا » للاهتمام بالاخبار عن نفسه ، فانه تعالى جعل الكواكب فى سماء الدنيا

---

(٣٣) روح المعانى ٨٩/١٧ ، ٩٠ .

(٣٤) أسرار التكرار فى القرآن ١٤٣ ت عبد القادر عطا دار العلوم للطباعة . ط الثانية ١٣٩٦ ـ ١٩٧٦ .
النكلاوى مخطوط بكلته اللغة العربية .

(٣٥) الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .

(٣٦) المؤمنون : ٥١ .

للزينة والحفظ . وذلك لأن طائفة اعتقدت فى النجوم أنها ليست فى سماء الدنيا ، وأنها ليست حفظا ولا رجوما ، فعدل الى التكلم والاخبار عن ذلك لكونه مهما من مهمات الاعتقاد ولتكذيب الفرقة المعتقدة بطلانه »

ومنها : التنبيه على ما حق الكلام أن يكون واردا عليه كالتلطف والترفق مع المخاطب كقوله تعالى : « وما لى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون » (٣٨) اذ أن أصل الكلام « وما لكم لا تعبدون الذى فطركم» ولكنه أبرز الكلام فى معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ، ويريهم أنه لا يريد لهم الا ما يريد لنفسه ، ثم لما انقضى غرضه من ذلك قال : « واليه ترجعون » ليدل على ما كان من أصل الكلام ومقتضيا له » .

* * *

ابن الأثير يعترض على الزمخشرى :

لما كان الزمخشرى قد أشار فى حديثه عن الالتفات أن الكلام اذا نقل من أسلوب الى أسلوب كان أحسن لنشاط الى أن الكلام اذا نقل من اسلوب الى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع ، وايقاظا للاصغاء اليه من اجرائه على أسلوب واحد » (٣٩) فقد اعترض ابن الأثير على الزمخشرى بعدة اعتراضات مؤداها أن الزمخشرى لم يفطن الى دقائق الالتفات وأنه خفى عليه كثير من أمره فيقول :

أولا : قال الزمخشرى « رحمه الله » ان الرجوع من الغيبة الى

---

(٣٧) فصلت :١١ ، ١٢ . البرهان ٣/٣٣٠،روح المعانى٢٤/١٠٤
البرهان ٣/٣٣٠ ، روح المعانى ٢٤/١٠٤ .
(٣٨) يس :٢٠ . البرهان ٣/٣٢٨ .
(٣٩) الكشاف ١/٦٤ .

الخطاب انما يستعمل للتفنن فى الكلام ، والانتقال من أسلوب الى أسلوب تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه ، وليس الأمر كما ذكره ، لأن الانتقال فى الكلام من أسلوب الى أسلوب اذا لم يكن الا تطرية لنشاط السامع ، وايقاظا للاصغاء اليه ، فان ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل الى غيره ليجد نشاطا للاستمتاع وهذا قدح فى الكلام لا وصف له لأنه لو كان حسنا لما مل .

ثانيا : ولو سلمنا الى الزمخشرى ما ذهب اليه ، لكان انما يوجد ذلك فى الكلام المطول ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك لأنه قد ورد الانتقال من الغيبة الى الخطاب ، ومن الخطاب الى الغيبة فى مواضع كثيرة من القرآن ويكون مجموع الجانبين مما يبلغ عشرة ألفاظ أو أقل

ثالثا : ومفهوم قول الزمخشرى فى الالتفات من أسلوب الى أسلوب انما يستعمل قصدا للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل اليه ، لا قصدا لاستعمال الأحسن . وعلى هذا فاذا وجدنا كلاما قد استعمل فى جمعية الايجاز ، ولم ينتقل عنه ، أو استعمل فى جمعيه الاطناب ، ولم ينتقل عنه ، وكان كلا الفريقين واقعا فى موقعه . قلنا هذا ليس بحسن اذ لم ينتقل فيه من أسلوب الى أسلوب ، وهذا قول فيه ما فيه .

ثم يقرر بعد ذلك أن الذى يطمئن اليه هو : (٤١) « أن الانتقال من الخطاب الى الغيبة أو من الغيبة الى الخطاب لا يكون الا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب الى أسلوب غير أنها لا تحد بحد ، ولا تضبط بضابط ، ولكن يشار الى مواضع منها ليقاس عليها غيرها » .

* * *

---

(٤٠) الكشاف ١/٦٤ والمثل السائر ٢٥٥ .

(٤١) المثل السائر ٢٥٥ .

وفى الحقيقة أن ما ذهب اليه ابن الأثير أخيرا قد ذهب اليه الزمخشرى قبلا كما مر بنا فى هذه الدراسة وذلك فى قوله : (٤٢) « وقد تختص مواقعه بفوائد » أما ما ذهب اليه فى اعتراضاته فقد كفانا امير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوى مؤونة الرد على ابن الأثير فى تعسفه وحمله على الزمخشرى هذه الحملة التى لم يفطن فيها الى ما قرره الزمخشرى • فيقول بعد أن ذكر أقوال العلماء فى فائدة الالتفات ، منقشا ابن الأثير فيما ناقش فيه الزمخشرى دافعا قول ابن الأثير واتهامه بالعجز عن فهم بلاغة الكشاف منوها بما ذكر الزمخشرى فى بلاغة الالتفات (٤٣) :

« القول الثالث : محكى عن الزمخشرى • وحاصل مقالته هو : أن ورود الالتفات فى الكلام انما يكون ايقاظا للسامع عن الغفلة ، وتطريبا له بنقله من خطاب الى خطب آخر ، فان السامع ربما مل من أسلوب فينقله من أسلوب الى أسلوب آخر تنشيطا له فى الاستماع ، واستمالة له فى الاصغاء الى ما يقوله ، وما ذكره الزمخشرى لا غبار على وجهه ، وهو قول سديد يشير الى مقاصد البلاغة ، ويعتضد بتصرف أهل الخطاب ، ومن مارس طرفا من علوم البلاغة ، لاح على القرب أن ماقاله الزمخشرى قوى من جهة النظر ، يدرى كنهه النظار ، ويتعاقد عن فهمه الأغمار ، وقد زعم ابن الأثير رد كلام الزمخشرى بوجهين :

أحدهما : أنه قال : انما جاز الالتفات من أجل التنشيط للسامع ، واعترضه بأن الكلام لو كان فصيحا لم يكن مملولا ، وهذا خطأ وجهل بمقاصد البلاغة ، فان مثل هذا لا يزيل فصاحة الكلام ، ولا ينقص من بلاغته • ولهذا : فانه لو ترك فيه الالتفات ، فانه باق على الفصاحة •

---

(٤٢) الكشاف ١/٦٤ .

(٤٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ٢/١٣٣ ـ ١٣٥ ط بيروت .

ولكن الغرض أن خروجه من أسلوب الخطاب مع ما ذكرنا أوقع،وأكشف عن المراد وأرفع •

ثانيهمـا : قوله : ان ما قاله الزمخشرى • انما يوجد فى الـكلام المطول ، والالتفات كما يستعمل فى الطويل فهو يستعمل فى القصير وهذا فاسد أيضا فان الزمخشرى لم يشـترط التطويل فى حسن الالتفـات فينتقض بما ذكرته وانما أراد تحصيل الايقاظ ، وازدياد النشاط بذكر الالتفات ، وهذا حاصل فى الكلام سواء كان طويلا أم قصيرا • فاذن لا وجه لكلام ابن الأثير على ما قصده الزمخشرى وانتحاه ، ومن العجب أنه شنع فيما أورده على الزمخشرى وقال : « كيف ذهب عنه معرفته مع احاطته بفن البلاغة والفصاحة ، وما أدرى أن ما قاله خير مما أتى به ابن الأثير، فان ما أراده الزمخشرى معنى يليق بالبلاغة ، ويزيدها قوة ،وما ذكره ابن الأثير رد الى عماية ، وقول ليس له حاصل ، ولا يدرك له نهاية ، وما عابه الا لأنه لم يطلع على أغواره ، ولا أحاط بكنهه ودقيق أسراره ، ولقد صدق من قال :

وكم من عائب قولا سـليما وآفته من الفهم السـقيم

وفى قول العلوى : « ان ما أراده الزمخشرى معنى يليق بالبلاغة، وما ذكره ابن الأثير رد الى عماية » هو الحق عينه ، وفى الحقيقة أن هذا مما يحمد للعلوى فى دراسة الالتفات فقط : « اذ أنه لم تكن له وقفات عند صور الالتفات يستوضح فيها أسراره ، وانما كان همـه أن يبين مواقع الالتفات فى الكلام » (٤٤) •

★ ★ ★

---

(٤٤) البـلاغة القرآنية فى تفسـير الزمخشرى ٦٠١ د• محمـد محمد أبو موسى ط دار الحامى •

مكان الالتفات من علوم البلاغة

لقد اختلف المحققون من أرباب الحواشى فى مكان الالتفات من علوم البلاغة ، ويرجع سبب ذلك الى أن الزمخشرى فى كشافه عند حديثه عن الالتفات من الغيبة الى الخطاب فى سورة الفاتحة أشار الى أن الالتفات من علم البيان ، وكرر ذلك فى خطبة المفصل » (١) ، كما أن العلامة السكاكى فى حديثه عن الالتفات قال « ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعانى » (٢) .

ومن هنا يرى العصام أن السكاكى انما قال ذلك « مع أن بيان التسمية فى علم المعانى يغنى عنه ، لئلا يتوهم أن التسمية اصطلاح منه حيث اشتهر خلافه بين الجمهور ، ولرد ما توهمه عبارة الكشاف حيث قال : يسمى التفاتا فى علم البيان » (٣) .

كما يرى أن الالتفات لا يكون من علم البيان ، اذ يقول فى توجيه كلام الزمخشرى : « وتوجيهه أنه جرى فى استعمال علم البيان على مذهب من يسمى العلوم الثلاثة بيانا ، لا أنه من علمى المعانى والبيان بحيثيتين . بل من الثلاثة ، ولذا ذكره السكاكى فى علم البديع أيضا ، لأنه من حيث اشتماله ايراد طرق مختلفة لا يخرج عن أقسام المجاز ، وليس له حال مخصوص بيانى يستدعى ذكره بخصوصه فى علم البيان حتى يكون سببا لتسميته ، ومن قال انه من العلوم الثلاثة ، فلا بد من اثبات حسن عرضى به كحسن ذاتى » (٤) .

كما يرى ابن يعقوب أن ذكر الالتفات فى علم المعانى صحيح ، ولم يتعرض لمناقشة كلام الزمخشرى ، كما لم يتعرض لوضعه فى علم البيان،

---

(١) الكشاف ١/٦٣ ، المفصل ١/١٦ .
(٢) مفتاح العلوم ٩٥ .
(٣) الأطول على التلخيص ١/١٥٣ المطبعة العامرة ١٢٨٤ هـ .
(٤) ذاته : ١٥٣ .

فيقول : معقبا على كلام السكاكى : (٥) « فان قلت : لأى وجه خصص تسمية بعلماء المعانى مع أن عد الالتفات من البديع أقرب ، لأنه يفيد الكلام ظرافة وحسن تطرية فيصغى اليه لظرافته وابتداعه ، ولا يكون الكلام به مطابقا لمقتضى الحال ، فلا يكون من علم المعانى أصلا عن كونه يختص بهم فيسمونه به دون أهل البديع ؟ قلت أما كونه من الأحوال التى تذكر فى علم المعانى فصحيح كما اذا اقتضى المقام فائدته من طلب مزيد الاصغاء لكون الكلام سؤالا أو مدحا أو اقامة حجة ، أو غير ذلك فهو من هذا الوجه من علم المعانى ، ومن جهة كونه شيئا ظريفا مستبدعا يكون من علم البديع ، وكثيرا ما يوجد فى المعانى مثل هذا ... وأما تخصيص علماء المعانى بالتسمية فلا حجر فيه » .

أما السيد قدس سره . فيرى أن الالتفات يمكن أن يكون من المعانى ومن البيان ، ومن البديع » يتضح ذلك من تعقيبه على ما ذكره الزمخشرى قائلا : « انما أراد بعلم البيان هنا كما فى خطبة المفصل : العلوم الثلاثة ، ثم ينقل عن بعض الأفاضل : « يبحث عن الالتفات فى كل واحد منها . أما فى علم المعانى فباعتبار كونه على خلاف مقتضى الظاهر ، وأما فى البيان : فباعتبار أنه ايراد لمعنى واحد فى طرق مختلفة الدلالة عليه جلاء وخفاء ، وبهذين الاعتبارين يفيد الكلام حسنا ذاتيا للبلاغة ، وأما فى البديع فمن حيث ان فيه جمعا بين صور متقابلة فى معنى واحد ، فكان من المحسنات المعنوية » (٦) .

ويوضح عبد الحكيم ما ذكره السيد فى أن الالتفات يبحث عنه فى علم البيان قائلا : « قوله « من حيث ايراد المعنى الواحد ... » فانه من خلاف مقتضى الظاهر وخلاف مقتضى الظاهر من الكناية ، لكن يكون حينئذ من جزئيات ما يبحث عنه فى علم البيان لا من مسائله » (٧) واليه

---

(٥) شروح التلخيص (مواهب الفتاح) ١/٤٦٣ ، ٤٦٤ .
(٦) حاشية السيد على الكشاف ١/٦٣ ، وعلى المطول ١٣٠ .
(٧) الحاشية : ٢٥٨ .

أشار فى شرحه للمفتـــاح حيث قال : (٨) « وكونه من الاخراج لا على مقتضى الظاهر المندرج تحت الكناية لا يوجب كونه من مباحث البيان كسائر الجزئيات المنـــدرجة تحت قواعده » ويرى الانبـــابى أن قول عبد الحكيم السابق : « لكن ••• » استدراك على ما قبله لدفع توهم أنه من جزئيـــات ما يتحث عنه فى علم البيـــان وهو اللفظ المجازى ، أو الكنائى ، ومسائله هى القواعد الكلية كقولك : كل ملزوم أطلق وأريد لازمه مع قرينة مانعة كناية »(٩)

هذا : وانك لترى انتناقض واضحا فيما ذكره السيد الســـند اذ أنه ذكر أولا : أن الالتفات يبحث عنه فى العلوم الثلاثة ، أما فى شرحه المفتاح فقد أشار الى أن كون الالتفـــات من الاخراج لا على مقتضى الظاهر المندرج تحت الكناية لا يوجب كونه من مباحث البيان كسائر الجزئيات المندرجة تحت قواعده » • وبهذا يكون قد أخرج الالتفات من البيان • ويكون ما ذهب اليـــه عبد الحـــكيم ـــ فى نظرى ـــ حائدا عن الصواب •

وفى الحقيقة أن هنا مسألة يجب التنبيه اليها • وهى أن السكاكى فى حديثه عن أضرب الخبر أشار الى أن « اخراج الكلام على مقتضى الظاهر فى علم البيان يسمى بالتصريح ، واخراجه على خلافه يســـمى بالكناية » (١٠) •

وقد ردد كثير من المحققين قول السكاكى هذا على ظاهره فذهب السيد الشريف الى توضيح ذلك « بأن الخبر المجرد عن التأكيد مثلا ، يدل على خلو ذهن المخاطب فى عرف البلغاء دلالة واحدة ، فاذا قصد به

---

(٨) المصباح شرح المفتاح السيد الشريف ١٨٣/١ ت د٠ فريد الحلاوى مخطوط شكلية اللغة العربية ٠

(٩) تقرير الانبابى ٢٥٨/٢ ٠

(١٠) مفتاح العلوم : ٨٢ ٠

ذلك كان من قبيل التصريح ومندرجا فيه ، وأيضـــا بين الخلو المذكور وبين عـــدم الجرى على مقتضى العـــلم ملازمة ادعائية ، فاذا أريد بالخبر المجـــرد ما هو الملزوم الادعائى للخلو ، أعنى ما ذكر من عـــدم الجرى على مقتضى الظاهر ، كان من قبيل الكناية ومندرجا فيهـــا ، اذ لا قرينة مانعة عن ارادة معانيها الظاهرة (١١) « كما أفاد الدسوقى فى حاشيته بأن آخرين قالوا انه من قبيل الاستعارة بالكناية والتخييل»(١٣)

ولكن فى الحقيقة أن خلاف مقتضى الظاهر ليس من قبيل الاستعارة بالكناية والتخييل • يقول الدسوقى : « والحق أنه لا يقال فيه شىء من ذلك لأن المجاز والكناية انما هو باعتبار المعانى التى يوضع لها اللفظ ، وهذا بخلاف ذلك ، اذ لم يستعمل اللفظ فيها لأنها معان عرضية»(١٣)•

قلت أن السيد السند قدس سره قد وافق صاحب مفتاح العلوم على أن خلاف مقتضى الظاهر من باب الكناية وقد أبطل الدسوقى ذلك • ومن هنا ذهب طاشكيرى زاده الى أن قول السكاكى السابق ليس على ظاهره • بل المراد أن الصريح يندرج تحت اخراج الكلام على مقتضى الظاهر أما الكناية فتندرج تحت اخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر اذ يقول (١٤) : « ان الصريح يندر جتحت اخراج الكلام على مقتضى الظاهراذ الظاهر حمل الكلام على المعانى الأصلية ، وأن الكناية يندرج تحت اخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر • اذ ارادة ملزوم المعنى من اللفظ خلاف الظاهر • فيكون لاخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر نوعان :

أحدهما : بالنسبة الى الملازمات العرفية الخطابية المعتبرة فى علم المعـــانى •

---

(١١) السيد الشريف على المطول ٥٢ ، شرح الفوائد الفياثية • ط شكبرى زاده / ٣٠ دار الطباعة العامرة ١٣١٤ هـ •

(١٣،١٢) شروح التلخيص (حاشية الدسوقى) ٢٠٩/١ •

(١٤) الفوائد الفياثية ٣٠ ، ٣١ •

وثانيهما : بالنسبة الى الدلالات الوضعية أو العقلية المعتبرة فى علم البيان فمعنى قوله : « انه فى علم البيان يسمى صريحا أو كناية : أنه اذا جرى فى علم البيان يسمى ما أجرى هو فيه صريحا أو كناية ، وحاصله أن الكناية يكون قسما من الاخراج لا على مقتضى الظاهر ، لان الاخراج المذكور قد يكون فى خلاف الملازمات العرفية فى المعانى ، وقد يكون فى خلاف الملازمات اللغوية فى البيان » وهذا ما أميل اليه .

أسلفت أن السيد السند قدس سره : قد أشار فى حاشـــيته على الكشاف وعلى المطول أن الالتفات من علوم البلاغة الثلاثة . وأشار فى شرحه للمفتاح الى أن كون الالتفات من الاخراج لا على مقتضى الظاهر المندرج تحت الكناية لا يوجب كونه من مباحث البيان كسائر الجزئيات المندرجة تحت قواعده » وهو بهذا القول — يقرر أن الالتفات ليس من علم البيان » وقد أخرج الالتفات من علم البيان أيضا ابن كمال باشا اذ يقول : (١٥) « ان اعتبـــار أنه ايراد لمعنى واحد فى طرق مختلفة فى الدلالة عليه غير كاف فى دخوله فى علم البيان ، بل لا بد من أن يكون ذلك الاختلاف بحسب الدلالة العقلية ، وهو مفقود فى الالتفـــات ، ولذلك لم يورده صاحب مفتاح العلوم فى البيان ، واقتصر على ايراده فى المعانى والبديع . وعده خلاف مقتضى الظاهر (١٦) من الكناية لا يجدى نفعا فى كونه من البيان لأنه ليس منها حقيقة . كيف وهى من أقسام اللفظ ، والخلاف المذكور ليس من جنس اللفظ ، وكذا اخراج الكلام عليه ليس منه وانما عده من الكناية لمـــا بينهما من المشابهة » .

---

(١٥) رسالة فى الالتفات وتلوين شعب الخطاب ورقة ١١ وجه مخطوط بدار الكتب رم ٦٢٦ مجاميع دار الكتب المصرية .

(١٦) أسـفلت أن الكناية من خـــلاف مقتضى الظاهر كما ذهب طاشكبرى زادة فى الصفحة السابقة .

تحقيق القول فى مجازية الالتفات

أسلفت فى هذه الدراسة أن الالتفات ليس من علم البيان ، وأعتقد أن هذه الدراسة كانت تكفى لبيان ذلك ، لولا كلمات قالها بهاء الدين السبكى وتابعه فيها السيوطى والشهاب الخفاجى • وتلقفها الانبابى فأطنب فيها أما الذى قاله السبكى فهو أن الالتفات حقيقة حيث كان معه تجريد (١) وقد تبعه السيوطى فى ذلك اذ ذكر فى كتاب الاتقان قولا نقله عن الشيخ بهاء الدين السبكى وهو : ولم أر من ذكر هل هو حقيقة أو مجاز ••• » •

وقد عد السيوطى الالتفات من الأبواب التى اختلف فيها المحققون من حيث الحقيقة والمجاز (٢) • وعقب الشهاب الخفاجى على ما ذهب اليه السبكى قائلا : « الالتفات قد يكون حقيقة ، وقد يكون مجازا ، ولذا ذكر فى المعانى ، ثم ينقل قول السبكى الآنف الذكر ، ولم يفصل القول فى ذلك (٣) •

أما الانبابى فانه يرى أن الالتفات اذا ما وقع فى اسم ظاهر فانه لا يكون الانتقال المكنى فيه مجازا ، ولو كان مع هذا الانتقال ملاحظة مزية ضمير المتكلم أو ضمير المخاطب الذى وقع الالتفات عنه •

واقامة الاسم الظاهر فى مقام ضمير الغيبة لا يترتب عليه أن يكون استعمال الاسم الظاهر فى المخاطب أو المتكلم مجازا لأن هذا ليس استعمالا للظاهر فى غير ما وضع له ، لأن الظاهر حقيقة متى أريد معناه أو معنى المتكلم أو المخاطب المتقدم ذكره ، ذلك أن مسمى الاسم الظاهر

---

(١) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ١/٤٧٧ •
(٢) ص ١٣٧ ـ ١٣٩ •
(٣) حاشية الشهاب ١/١١ •

لم يقيد بشيء وضعا ، فهو موضوع لمعناه لا بشرط شيء من غيبة أو تكلم أو خطاب ، بل هو موضوع لدلالة على مسماه بغض النظر عن مزية التكلم والخطاب والغيبة • ومعنى أن الاسم الظاهر فى قوة الغيبة أن الغيبة لما كان مآله الى غير المتكلم أو المخاطب اللذين هما طرفا المخاطبة ، بل مآله خارج عن دائرة التخاطب وكان الاسم الظاهر كذلك ليس مسماه متناولا أحد طرفى التخاطب (المتكلم والمخاطب) جعل الاسم الظاهر فى قوة الغيبة وان كان لكل من الاسم الظاهر مزية تغاير مزية الغيبة ولعل اجلاها احتياج الغيبة الى سبق ما يعود اليه اليه فى الكثير الغالب بخلاف الاسم الظاهر • ومنها أن الغيبة يستمد تعريفه من الخارج والاسم الظاهر يستمد تعريفه من ذاته ، ولذا كان منه العلم •

أما ان كان الالتفات واقعا فى الضمائر المتعاقبة فالأقرب عند الانبابى تبعا للأمير ان الالتفات حينئذ مجاز ، وذلك ان استعمل أحد الضمائر فى معناه ولوحظ مزية الآخر ، فأنت ان جعلت (أنت) مكان (هو) واردت معنى (أنت) مشيرا بهذا الى تنزيل الغائب (هو) منزلة المخاطب ايذانا بمعان هى وليدة الحضور الحسى أو المعنوى الاعتبارى •

وكذلك اذا قلت (هو) مريدا معناه (الغائب) جاعلا له مكان (أنت) الذى هو حق الواقع تنزيلا لحضوره منزلة غيبته لغفلته أو « سلبيته » وخمول ذكره •

ولعل الذى جعل مثل ذلك من قبيل المجاز ان الالتفات فيه استعمال الضمير فى غير ما وضع له ، لعلاقة تنزيله ، ألا ترى أن (هو) مثلا موضوع لمعنى الغيبة فاذا استعمل فى معنى الحضور كان استعمالا فى غير ما وضع له ، بخلاف الاسم الظاهر فانه لم يوضع لمسماه مع ملاحظة معنى الغيبة فيه أو الحضور أو التكلم •

ثم تخلص الانبابى الى أن الضمائر لا تكون فى الالتفات حقيقة بوجه والقول بأن الالتفات حقيقة لعله جرى على الرأى الضعيف القائل بأن اللفظ المستعار مستعمل فيما وضع له حيث لم يستعمل فى المشبه الا بعد ادعاء أنه من جنس المشبه به (٤) فهو بهذا يعلى القول بمجازية أكثر صور الالتفات وهو ما كان فى الضمائر (٥) .

ويمكن القول بناء على ذلك أن التجوز فيه من قبيل الاستعارة التبعية ، لأن معانيها جزئيات وضعا واستعمالا ، كما هو مذهب العضد والسيد السند ومن وافقهما ، فلم توضع لمفهوم كلى حتى تدخل فى اسم الجنس الذى تختص به الأصلية المعرف بلاسم الموضوع لمفهوم كلى تحقيقا أو تأويلا وليس بمشتق .

وأما على مذهب السعد والجمهور من أنها كليات وضعا جزئيات استعمالا ، فيحتمل اعتبار الوضع ، فتدخل فى اسم الجنس ، وتكون استعارة أصلية ، أو اعتبار الاستعمال فلا تدخل فيه .

ما ذهب اليه « الانبابى » ليس مسلما عندنا ، فليس فى الالتفات الا تحويل الكلام من أسلوب الى أسلوب ليتجدد ، فيجدد فى المتلقى اقتداره على وعى المعنى ، وليس فى الانتقال الذى هو جوهر الالتفات مبالغة التى هى جوهر الالتفات مبالغة التى هى جوهر المجاز ، واذا ما كان بين الالتفات والمجاز وشيجة الانتقال ، فان بينهما مفارقة من من وجهين ، وجه المبالغة ووجه توحد المنتقل منه واليه فى الالتفات وتعاير هما فى المجاز ، وذلك وحده كاف ليكون حجازا منيعا بين الالتفات والمجاز ؟

---

(٤) يقصد بذلك العلامة السكاكى . راجع مفتاح العلوم ١٧٤ـ١٧٦

(٥) حاشية على البيانية : ٩ ، ٣٩٨ (ط / ١ ـ بولاق ـ ١٣١٥هـ)

مقامات الالتفات عند ابن الأثير والعلوى

أسلفت أن صور الالتفات عند الجمهور ست • أما عند السكاكى : فهى سبع • والصـــورة السابعة : أن يكون مقتضى الظاهر التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة فيعدل عنه الى الآخر •

أما العلامة ابن الأثير ، فقد تحدث عن الالتفات فى كتابين :

أولهما : المثل السائر ، والثانى : الجامع الكبير • أما الالتفات عنده فى المثل السائر فيحوى ثلاثة أقسام (١) : القسم الأول : ويشمل الرجوع من الغيبة الى الخطاب وقد مثـــل له بقوله : « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين (٢) ، والرجوع من الخطاب الى الغيبة ومثل له بقوله تعالى : حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » ولا يفوتنى أن أشير الى أنه جعل بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله التفاتا من الخطاب الى الغيبة وقد مثل لذلك بقوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم » (٤) اذ أنه قد انتقل فى أول السورة من الغيبة الى الخطاب ، لتعظيم شـــأن المخاطب ، ثم انتقل فى آخرها من الخطاب الى الغيبة لتلك العلة بعينها وهى تعظيم شأن المخاطب أيضا لأن مخاطبة الرب تبارك وتعالى باسناد النعمة اليه تعظيم لخطابه ، وكذا ترك مخاطبته باسناد الغضـــب اليه تعظيم لخطابه » (٥) وقد أدخل فى هذا القسم شيئين أحدهما :الرجوع من الغيبة الى التكلم ، وسماه الرجوع من الغيبة الى خطاب النفس

---

(١) المثل السائر ٢٥٥ ـ ٢٦٣ •

(٢) أم الكتاب ٢ ـ ٥ •

(٣) يونس : ٢٢ •

(٤) أم الكتاب : ٧

(٥) المثل السائر : ٢٥٦ •

ومثل له بقوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا » (٦) .

والثانى : الرجوع من المتكلم الى الخطاب وسماه : الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الجماعة ، ومثل له بقوله تعالى : « وما لى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون » (٧) وقد ذكر ابن الأثير صورة خامسة وهى الانتقال من التكلم الى الغيبة . ولكنه لم يصرح بذلك وانما يفهم من تعليقه على قوله تعالى « يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له الملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى » (٨) اذ قال : فانه انما قال : « فآمنوا بالله ورسوله » ، ولم يقل « فآمنوا بالله وبى » لكى تجرى عليه الصفات التى أجريت عليه وليعلم أن الذى وجب الايمان به ، والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان .. » وقد سار العلوى ابن الأثير (٩) فى هذا القسم الا أنه لم يتعرض للالتفات من المتكلم الى الخطاب الذى سماه ابن الأثير الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الجماعة . وكلاهما لم يتعرض للانتقال من الخطاب الى التكلم .

القسم الثانى من الالتفات عند ابن الأثير : فى الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر . وعن الفعل الماضى الى فعل الأمر . وقد نبه على أن « هذا القسم كالذى قبله فى أنه ليس الانتقال فيه من صيغة

---

(٦) فصلت : ٩ ، ١٠ .

(٧) يس : ٢٢ .

(٨) الأعراف : ١٥٨ المثل السائر ٢٦٠ .

(٩) الطراز ٢/١٣٥ ، ١٣٦ .

الى صيغة طلبا للتوسع فى أساليب الكلام فقط ، بل لأمر وراء ذلك • وانما يقصد اليه تعظيما لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل : وتفخيما لأمره ، وبالضد من ذلك فيما أجرى عليه فعل الأمر » (١٠) •

أما الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر فقد مثل له بقوله تعالى : « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين • وان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون » (١١) يقول ابن الأثير : « فانه انما قال أشهد الله واشهدوا» ولم يقل « وأشهدكم » ليكون موازنا له ، وبمعناه • لأن اشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما اشهادهم فما هو الا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجىء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس النثرى بينه وبينه : « أشهد على أنى لا أحبك تهكما به واستهانة بحاله » والجدير بالذكر أن المتتبع لتعليقات ابن الأثير فى باب الالتفات يجده قد استرشد بما كتبه جار الله الزمخشرى فى كشافه (١٢) •

هذا : وانك لترى فى هذه الصياغة ما يلفت النظر • اذ أن هؤلاء المعاندين لما سلكوا فى طريق المخالفة والعناد سبيل الترقى من سىء الى أسوأ ، كان لا بد أن ينتقل من صيغة المستقبل الى الأمر ليرد على سلفهم وعنادهم ، وأنهم لا وزن لهم عنده ، اذ هو الآمر المؤيد من عند الله ولا بد من أن يطاع (١٣) : « لأن هؤلاء أخبروا أولا عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به حجة فى نفسه ، وان لم تكن واضحة

---

(١٠) المثل السائر : ٢٦٠ •

(١١) هود عليه السلام ٥٣ ـ ٥٥ ، المثل السائر ٢٦٠ •

(١٢) الكشاف ٢/٢٧٦ •

(١٣) ينظر روح المعانى •

الدلالة على المراد • ثانيا : ترك الامتثال لقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم : « وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك » مع امكان تحقق ذلك بتصديقهم له فى كلامه ، ثم نفوا عنه تصديقهم له عليه السلام بقولهم : « وما نحن لك بمؤمنين » مع كونه عليه السلام مما يقبل التصديق ، ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضا ، ثم يصل صلفهم وعنادهم الى قولهم : « ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » أى ما نقدر أن نقول الا أن بعض آلهتنا اذا سببته بسوء : اعتراك بسوء » (١٤) والمعنى : أفسد عقلك تعض آلهتنا لسبك اياها وصدك عن عبادتها ، وحطك لها عن رتبة الألوهية •

كما أنك ترى المغايرة فى الصيغة بين قوله «انى أشهد الله،أشهدوا» « اذ أنه أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بان ، وأكد ذلك « بأشهد الله » فانه كالقسم فى افادته التوكيد • وأمرهم أن يسمعوا ذلك ويشهدوا به ، والمقصود منه الاهانة والاستهزاء » (١٥) •

وأما الالتفات بالرجوع أو العدول عن الفعل الماضى الى فعل الأمر فقد أشار الى أن الغرض منه : التوكيد لما أجرى عليه فعل الأمر لمكان العناية بتحقيقه ومثل لذلك بقوله تعالى : « قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون » (١٦) ثم قال : وكان تقدير الكلام « أمر ربى بالقسط ، وباقامة وجوهكم عند كل مسجد » فعدل عن ذلك الى فعل الأمر للعناية بتوكيده فى نفوسهم ، فان الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ، ثم أتبعها بالاخلاص الذى هو عمل القلب ، اذ عمل الجوارح لا يصح الا باخلاص النية ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « انما الأعمال بالنيات » •

(١٤) ٨٢/١٢ ، الاستغناء فى أحكام الاستثناء ٢٨٧ •
(١٥) روح المعانى ٨٣/١٢ •
(١٦) الأعراف : ٢٩ • المثل السائر ٢٦٠ ، ٢٦١ •

وفى هذه الآية تجد ذلك التشبيه الناطق بقدرته تعالى فى قوله « كما بدأكم تعودون » لأن ذلك أعلام بالبعث : « فقد شبه الاعادة بالبدء • والمعنى تعودون بانشائه تعالى مثل بدئه تعالى اياكم » (١٧) وهذه الجملة : « اما استئناف لبيان بطلان اعتقادهم فى انكار البعث واما تعليل لقوله « وأقيموا ... » أى امتثلوا ما ذكر لأنه يعيدكم فيجازيكم بعملكم » (١٨) ولم يقل سبحانه وتعالى يعيدكم كما هو الملائم لما قبله اشارة الى أن الاعادة دون البدء من غير مادة بحيث لو تصور الاستغناء عن الفاعل لكان فيها دونه ، فهو كقوله تعالى : «وهو أهون عليه » (١٩) سواء كانت الاعادة : الايجاد بعد الاعدام بالكلية ، أو جمع متفرق الأجزاء ، وانما شبهها سبحانه بالابداء تقرير الا مكانها والقدرة عليها • وقال قتادة : المعنى : كما بدأكم من التراب تعودون اليه كما قال سبحانه « منها خلقناكم وفيها نعيدكم » (٢٠) وقيل المعنى كما بدأكم لا تملكون شيئا كذلك تبعثون يوم القيامة » (٢١) • وقد تبع العلوى ابن الأثير فى هذا القسم أيضا (٢٢) •

القسم الثالث من الالتفات عند ابن الأثير (٢٣) : الاخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل ، وعن المستقبل بالماضى • وجعل من الأخير : الاخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل ٥ أما الاخبار عن الماضى بالمستقبل • فيشير ابن الأثير الى سر بلاغته فيقول : «ان الفعل المستقبل

---

(١٧) النهر اماد من البحر المحيط (هامش البحر المحيط) ٤/٢٨٨

(١٨) الفتوحات الالهية ٢/١٣٤ ، ١٣٥ •

(١٩) الروم : ٢٧ •

(٢٠) طه : ٥٥ •

(٢١) روح المعانى ٨/١٠٧ •

(٢٢) الطراز ٢/١٣٦ ، ١٣٧ •

(٢٣) المثل السائر ٢٦١ ـ ٢٦٣ •

اذا أتى به فى حالة الاخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضى ، لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التى يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضى ، ثم أشار الى أن عطف المستقبل على الماضى يكون على ضربين أحدهما بلاغى وهو اخبار عن ماض بمستقبل ،أو ما يستعمل فيه المستقبل للدلالة على حدث قد مضى • والضرب الآخر غير بلاغى ، وليس اخبارا بمستقبل عن ماض ، وانما هو مستقبل دل على مستقبل غير ماض ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض ، أو هو ما يستعمل فيه المستقبل للدلالة على حدث يقع فى المستقبل •

فالضرب الأول (البلاغى) : كقوله تعالى : والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » (٢٤) فانه انما قال « فتثير » مستقبلا ، وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذى أشرنا اليه • وهو حكاية الحال التى يقع فيها اثارة السحاب ، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة • وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية كحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك •

ثم يحكى حديث سيدنا الزبير بن العوام فى غزوة بدر • الذى أخبر فيه أنه لقى عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على فرس وعليه لامته كاملة لا يرى منه الا عيناه وهو يقول أنا أبو ذات الكرش • يقول الزبير: وفى يدى عنزة فأطعن بها فى عينه فوقع ، وأطأ برجلى على خده حتى خرجت العنزة من عنقه •

يقول ابن الأثير : « قوله : فأطعن بها فى عينه ، وأطأ برجلى » معدول به عن لفظ الماضى الى المستقبل ليمثل للسامع الصورة التى فعل

---

(٢٤) فاطر : ٩ المثل السائر ٢٦١ وينظر ص ٤٩١ ـ ٤٩٢ من هذا البحث •

فيها ما فعل من الاقدام والجراءة على قتل هذا الفارس المستلئم » (٢٥) ثم يقول : وعلى هذا ورد قول تأبط شرا :

بأنى قد لقيت الغول تهوى
بشهب كالصحيفة صحصحان (٢٦)
فأضربهـا بلا دهش فخـرت
صريعا لليـدين وللجـــران

فانه قصد أن يصور لقومه الحال التى تشـجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم اياها ، مشـاهدة للتعجب من جـراءته على ذلك الهول ، ولو قال فضربتها • عطفـا على الأول ، لزالت هـذه الفـائدة المذكورة •

والضرب الثانى « غير البلاغى » هو الفعل المستقبل الذى يدل على معنى مستقبل غير ماض ، ويراد به أنه فعل مستمر الوجود لم يمض، ومثل له بأمثلة كثيرة منها قوله تعالى : « ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله » (٢٧) فانه انما عطف المستقبل على المـاضى لأن كفرهم كان ووجد ، ولم يستجدوا بعده كفرا ثانيا ، وصدهم متجدد على الأيام لم يمض كونه ، وانما هو مستمر يستأنف فى كل حين •

وقد جعل ابن الأثير هذا النوع غير بلاغى ، ولكن • ألست معى فى أن التعبير بالمضارع هنا يدل على تهويل هذا العمل وشناعته ، لأنهم لم

---

(٢٥) المثل السائر ٢٦١ ، ٢٦٢ •

(٢٦) الصحصحان : ما استوى من الأرض • ترتيب القاموس المحيط طاهر الزاوى ط عيسى الحلبى •

(٢٧) الحج : ٢٥ المثل السائر ٢٦٢ •

يكتفوا بكفرهم ، بل كل منهم « من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (٢٨) .

كما أن فى هذا الاخبار اعجازا للقرآن حيث أخبر أنهم لا يزالون يصدون الناس عن سبيل الله ؟

يقول الدكتور محمد أبو موسى : « ولست أدرى لماذا كان هذا القسم غير بلاغى ؟ أليست البلاغة نظرا فيما تنطوى عليه خصائص الألفاظ وأحوالها لابراز معانيها وبيان لطائفها ، ومطابقتها لسياق الكلام ؟

وأليس هذا داخلا فى أحوال اللفظ التى بها يطابق مقتضى الحال ؟

وأليس هذا موضعا حسنا ينبغى أن يتأمل كما يقول ابن الأثير » ؟ (٢٩) .

وأما الاخبار بالفعل الماضى عن المستقبل . فيرى أن الغرض منه توكيد تحقق الفعل وايجاده ، لأن الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد وانما يفعل ذلك اذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التى يستعظم وجودها . والفرق بينه وبين الاخبار بالفعل المستقبل عن الماضى أن الغرض بذاك : تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته ، ليكون السامع كأنه يشاهدها والغرض بهذا « أى الاخبار بالماضى عن المستقبل » هو الدلالة على ايجاد الفعل الذى لم يوجد » (٣٠) . وقد مثل لذلك بأمثلة منها قوله تعالى : « ويوم نسير

---

(٢٨) الحج : ٨ .
(٢٩) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ٥٤٧ .
(٣٠) المثل السائر ٢٦٣ .

الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا » (٣١) وانما قال « وحشرناهم » ماضيا بعد « نسير ، ترى » وهما مستقبلان• للدلالة على أن حشرهم قبل التيسير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال . كأنه قال « وحشرناهم قبل ذلك » لأن الحشر هو المهم • لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضى » •

وقد أدخل ابن الأثير فى هذا النوع : الاخبار باسم المفعول عن فعل المستقبل وأشار الى أن ذلك « انما يفعل لتضمنه معنى الفعل الماضى كقوله تعالى : « ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » (٣٢) فانما آثرا اسم المفعول الذى هو « مجموع » على الفعل المستقبل الذى هو « يجمع » لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه الموصوف بهذه الصفة » •

هذا : وانك لترى فى التعبير بقوله تعالى « يوم مشهود » ماينبىء عن هول ذلك اليوم • اذ التقدير «مشهود فيه» فاتسع فى الجار والمجرور ووصل الفعل الى الضمير اجراء له مجرى المفعول به . أى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد ، وانما لم يجعل نفس اليوم مشهودا بل جعل مشهودا فيه، ولم يذكر المشهود تهويلا وتعظيما أن يجرى على اللسان . وذهابا أن لا مجال لالتفات الذهن الى غيره » • وقد تابع العلوى فى هذا القسم ابن الاثير أيضا • ولم يكن له من فضل الا دفع اعتراض ابن الأثير على الزمخشرى • وهذا كل ما يحمد له فى باب الالتفات •

---

(٣١) الكهف : ٤٧ . المثل السائر ٢٦٣ •

(٣٢) هود : ١٠٣ . المثل السائر ٢٦٣ . الكشاف ٢/ ٢٩٢ روح المعانى ١٢/ ١٣٨ •

وأما الالتفات فى « الجامع الكبير » (٣٣) فقد ذكر ابن الأثير أنه ثمانية أقسام اتفق حديثه فى ستة أقسام هنا مع المثل السائر • أما القسمان الآخران فقد انفرد بهما « الجامع الكبير » ولم يتبعه فيهما الأمير المعلوى وهما :

١ ــ الرجوع من خطاب التثنية الى خطاب الجمع ، ومن خطاب الجمع الى خطاب الواحد • كقوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » (٣٤) فانه توسع فى هذا الخطاب فثنى ثم جمع ، ثم وحد فخاطب موسى وهارون فى ذلك عليهما السلام بالتبوء ، ثم ساق الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد واقامة الصلاة ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التى هى الغرض تعظيما له وتفخيما لأمره ، لأنه الرسول على الحقيقة » يقول شهاب الدين الألوسى :

« وانما ثنى الضمير أولا ، لأن التبوء للقوم ، واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور • ثم جمع ثانيا : لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد ، مع أن فى ادخال موسى وهارون عليهما السلام مع القوم فى الأمرين المذكورين : ترغيبا فى الامتثال ثم وحد ثالثا : لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة ، وهى من الأعظم أسر وأوقع فى النفس ، ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالايمان ، وللاشعار بأنه المدار فى التبشير » (٣٥) •

---

(٣٣) الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور ت د• مصطفى جواد ، د• جميل سعيد ط العراق •

(٣٤) يونس : ٨٧ • الجامع الكبير ، الفوائد المشوق الى علوم القرآن • ابن قيم الجوزية ص ١٠١ ، ١٠٢ نشر مكتبة المتنبى •

(٣٥) روح المعانى ١١/١٧٢ •

٢ ــ عكس الظاهر : وهو أن العرب قد تتوسعوا فى كلامهم وتجوزوا الى غاية ، فيذكرون كلاما يدل ظاهره على معنى ، وهم يريدون به معنى آخر عكسه وخلافه والأصل فى ذلك أنك تذكر كلاما يعطى معناه أنه نفى لصفة شىء قد كان ، وهو نفى الموصوف أنه ما كان أصلا فمن ذلك قول على رضى الله عنه فى صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه لا تثنى فلتاته » أى لا تذاع • فظاهر ذلك أن ثم فلتات غير أنها لا تذاع ، وليس المراد ذلك،بل المراد أنه لم يكن ثم فلتا تأصلافتذاع» والمعنى (٣٦) : « أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فى مجالسه فلتات • أى زلات فتثنى • أى تذكر وتحفظ وتحكى لأن مجلسه صلى الله عليه وسلم كان مصونا عن السقطات واللغو ، وانما كان مجلس ذكر حسن وحكم بالغة وكلام لا فضول » ومنه قول الشاعر :

لا تفزع الأرنب أهوالها لا ترى الضب بها ينجحر

أى ليس بها ضب فينجحر (٣٧) •

وصاحب « جوهر الكنز » قد أخرج هذا النوع من الالتفات وجعله قسما من أقاسيم شجاعة العربية وعرفه بتعريف ابن الأثير ومثل له بقوله تعالى : « ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه » (٣٨) فهذا يدل ظاهره على أن (هناك) من يدعو مع الله الها آخر وله برهان ، وما المراد ذلك ؛ بل المراد أن كل من يدعو مع الله الها آخر لا برهان له به ، ومنه قوله « ذلك بأنهم كانوا يكفرون

---

(٣٦) ينظر لسان العرب • ابن منظور • نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، الفائق فى غريب الحديث • الزمخشرى ١٣/١ ت على البجاوى بالاشتراك ط عيسى لحلبى ، الثانية ، النهاية فى غريب الحديث والأثر • ابن الأثير ٢٥٨/٤ ، ٢٥٩ ت محمود الطناحى ط عيسى الحلبى

(٣٧) صدر البيت من الفائق فى غريب الحديث للزمشرى ١٣/١

(٣٨) المؤمنون : ١١٧ • جوهر الكنز ١٢٣ •

بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق » (٣٩) فقوله « بغير حق » يقتضى أن ثم من يقتل بحق ، والمراد : أنه لا يقتل نبى الا بغير حق . وهذا من الصفات اللازمة التى لا مفهوم لها خلاف منطوقها » .

ولذلك يقول القرطبى : (٤٠) فان قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق ، ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به ، قيل له : ليس كذلك ، وانما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق ، فكان هذا تعظيما للشنعة عليهم ، ومعلوم أنه لا يقتل نبى بحق ، ولكن يقتل على الحق ، فصرح قوله « بغير الحق » عن شنعة الذنب ووضوحه ، ولم يأت نبى قط بشىء يوجب قتله . وليس قتلهم خذلانا لهم ، بل كرامة وزيادة فى منازلهم . كمثل من يقتل فى سبيل الله من المؤمنين . قال ابن عباس والحسن : « لم يقتل نبى قط من الأنبياء الا من لم يؤمر بقتال ، وكل من أمر بقتال نصر » .

موقفنا من زيادات ابن الأثير فى مقامات الالتفات

أسلفت أن ابن الأثير جعل الالتفات فى كتابه « المثل السائر » ثلاثة أقسام . وأنه جعل منه الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضى الى فعل الأمر ، والاخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل وعن المستقبل بالماضى ، والاخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل كما عد فى « الجامع الكبير » من الالتفات : الرجوع من خطاب التثنية الى خطاب الجمع ، ومن خطاب الجمع الى خطاب الواحد ، وعكس الظاهر .

---

(٣٩) البقرة : ٦١ ينظر روح المعانى ٢٧٦/١ ، ٢٧٧ .

(٤٠) الجامع لأحكام القرآن . القرطبى ٤٣٢/١ نسخة عن طبعة دار الكتب .

ولذلك تراه قد استهل حديثه عن الالتفات فى المثل السائر بقوله :(١) « وحقيقته مأخوذة من التفات الانسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا ، وتارة كذا . وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل فيه من صيغة الى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر الى غائب .. » الى آخر ما أسلفت فى هذه الدراسة . ثم تراه يصرح فى « الجامع الكبير » بأن الاخبار عن الفعل الماضى بالمضارع قسم من الالتفات لطيف المأخذ دقيق المغزى .

أما الأمير العلوى . فقد تابع ابن الأثير فى الأقسام التى ذكرها فى المثل السائر وعدها من الالتفات . ولهذا يعرف الالتفات تعريفا يشمل هاتيك الأنواع ويستجيده فيقول (٢) : « ومعناه فى مصطلح علماء البلاغة: العدول من أسلوب فى الكلام الى أسلوب آخر مخالف للأول ويقول : وهذا أحسن من قولنا : هو العدول من غيبة الى خطاب ، ومن خطاب الى غيبة ، ويعلل ذلك قائلا : « لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها ، والحد الثانى انما هو متصور على الغيبة والخطاب لا غير ، ولا شك أن الالتفات قد يكون من الماضى الى المضارع . وقد يكون على عكس ذلك . فلهذا كان الحد الأول هو الأقوى دون غيره » .

هذا : والذى جعله ابن الأثير وغيره من الالتفات . قد أشار اليه بهاء الدين السبكى بقوله (٣) : « ومنهم من يجعل الالتفات نقل الكلام من حالة الى أخرى مطلقا ، وجعل منه ابن النفيس (٤) فى طريق

---

(١) المثل السائر : ٢٥٤ .

(٢) الطراز ٢/١٣٢ .

(٣) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ١/٤٦٤ .

(٤) المتوفى ٦٩٣ . طبقات الشافعية تاج الدين السبكى ٥/١٢٩ المطبعة الحسينية ١٣٢٤ .

الفصاحة ، التعبير عن المضارع بالماضى وعكسه ، وجعل غيره منه الانتقال من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لغيره » ثم يشير الى أن هذا النوع هو أقرب شىء للالتفات المشهور لمشابهته له فى الانتقال من أحد أساليب ثلاثة لآخر ، وفى انقسامه الى ستة أقسام » .

وفى موضع آخر يقول ابن السبكى أيضا (٥) : « أهمل المصنف أمورا كثيرة من اتيان الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وأن كلا منها يصلح أن يكون من أبواب المعانى اذا اعتبرت فيه نكتة لطيفة منها : انتقال الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر .. ووجهه ما سبق فى الالتفات لأن فيه الانتقال من أساليب ثلاثة الى آخر وأقسامه كالالتفات ستة ، وليس التفاتا لأن الالتفات الانتقال من أحد الأساليب الثلاثة السابقة وهى التكلم والخطاب والغيبة الى غيره » .

وقد ذهب العصام الى أن قول الخطيب فى تعريف الالتفات « التعبير عن معنى .. » (٦) يقتضى المقام التعبير عنه بلفظ مذكر بلفظ مؤنث وبالعكس ، وكذا التعبير بمذكر بعد التعبير بمؤنث يشارك الأمثلة المذكورة فى النكت ، فينبغى أن يجعل تحت الالتفات وله نظائر ... ولو لم يثبت أنها جعلت التفاتا فتجعلها من ملحقات به » .

وفى الحقيقة أن هذه الأشياء وان كانت تقارب الالتفات من حيث ان كلامنها من خلاف مقتضى الظاهر ولكل منها وجه حسن . الا أنها تخالفه فى أنها لا ينطبق عليها ما اشترطه المحققون فى الالتفات . يقول عبد الحكيم (٧) : « قيل ههنا أقسام أخر كالانتقال من التذكير الى التأنيث وبالعكس ، ومن الجمع الى المفرد وبالعكس ، ومن صيغة من الذى

---

(٥) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ١/٤٩١ ، ٤٩٢ .

(٦) ينظر بغية الايضاح ١/١٤١ ، الأطول ١/١٥٤ .

(٧) حاشية السيلكوتى على المطول : ٢٤٨ .

لذوى العلم الى ما • فان لم يجعل التفاتا فهو من ملحقـــاته • وليس بشيء ، لأن المعبر عنه فيهـــا ليس بواحـــد ، لأن المذكر مغـــاير للمؤنث بالذات ، وكذا الجماعة للواحد ، وكذا أولو العلم لغير أولى العـــلم ، بخلاف الأقسام الســـتة ، فان المعبر عنه واحـــد ، والاختلاف باعتبـــار الخطاب والغيبة والتكلم » •

معنيان آخران للالتفات (١)

أشار سعد الدين الى أن الالتفات قد يطلق على معنيين آخرين :

أحدهما : تعقيب الكلام بجملة مستقلة ملاقيـــة له فى المعنى على طريق المثل أو الدعاء أو نحوهما كقوله تعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » (٢) ، وكقوله تعالى «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » (٣) وقولهم : قصم الفقر ظهرى ، والفقر من قاصـــمات الظهر • وكقول جرير :

أتنسى اذ تودعنا ســـليمى بعود بشامة سقى البشـــام

وفى الحقيقة أن هذا النوع قد عرف عند المتأخرين باسم التذييل : وهو نوع من الاطناب وحده الخطيب القزوينى بأنه : « تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد » (٤) وجدير بالاشارة أن هذا النوع هو التفات الأصمعى (٥) وهو التفات لغوى ، لأنه انتقال من أســـلوب الى آخر • وليس من قبيل الالتفات الاصطلاحى •

---

(١) ينظر المطول ١٣٤ ، الأطول ١/١٥٦ ، ١٥٧ ، خزانة الأدب وغاية الأرب ابن حجة الحموى ٥٩ ط بيروت •

(٢) الاسراء : ٨١ •

(٣) التوبة : ١٢٧ •

(٤) بغية الايضاح ٢/١٣٩ •

(٥) العمدة فى صناعة الشعر ونقده • ابن رشـــيق ٢/٣٧ ، ٣٨ ط السعادة المطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ •

الثانى : أن تذكر معنى فتتوهم أن السامع اختلجه شىء فتلتفت الى كلام يزيل اختلاجه ، ثم ترجع الى مقصودك كقول الرماط بن ميادة :

فلا صرمه يبدو وفى اليأس راحة
ولا وصله يبدو لنا فنكارمه

كأنه لما قال : « فلا صرمه يبدو » قيل له : : وما تصنع به ؟ فأجاب بقوله : « وفى اليأس راحة » .

ومن الواضح الجلى أن هذا البيت من الاعتراض ، وقد أدخله بعض الدارسين فى الالتفات ، وجعلهما واحدا ومن هؤلاء قدامة بن جعفر وتبعه أبو هلال العسكرى ، والباقلانى وابن رشيق (٦) والاعتراض نوع من الاطناب حده الخطيب بأنه « أن يؤتى فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الاعراب لنكتة »(٧)

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، انه من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم . رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » .

دكتور ابراهيم على حسن داود
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
كلية اللغة العربية ــ المنوفية

---

(٦) نقد الشعر . قدامة بن جعفر ١٥١ ت د. محمد خفاجى دار عطوة للطباعة . ط أولى ١٣٩٩ هـ . الصناعتين . أبو هلال العسكرى ط الخانجى ط أولى ١٣٢٠ ، اعجاز القرآن : ١٠٠ ت السيد أحمد صقر ط دار المعارف . الثالثة . العمدة ٢/٣٧ ، ٣٨ .

(٧) بغية لايضاح ٢/١٤٧ .